الشخصية الإسلامية في الرواية التاريخية:

عرفنا - فيما سبق - أن التاريخ يحدّ من مصادر إبداع الشخصية ذات الثراء الفكري لما له من خاصية التجربة والمعاناة، وثراء النماذج القادرة التي تربعت في وجدان الأمة، واستطاعت أن تنصب رموزاً ومنارات يهتدي بها شباب الأمة، كلما نشطت ذاكرتهم من حيث كونه ذاكرة الأمة، (وبقدر ما تسلم هذه الذاكرة، وتُحسن الأمة التعامل معها، بقدر ما يمتد تأثيرها وتبرز قدراتها وتقوى شخصيتها) [١].

فالمسلم الحقيقي هو الذي يُولي «فن التاريخ وعلمه» أهمية قصوى في حياته، لا سيما إذا كان يمثل في ذاته «فوائد جمة» و«غاية شريفة» [٢] فضلاً عن كونه ذاكرة الأمة، ويمثل امتدادها العميق في الزمن، فيوقفنا على حياة الأمم وأخلاقهم، والأنبياء وسيرهم، فيقدم نماذج فذة يمكننا الاقتداء بهم في أحوال الدنيا والدين» [٣].. فإنه بهذا الحضور والثراء قادر على تقديم دور فاعل في تنمية المجتمع البشري الإسلامي، لا سيما في الزمن الذي يعز فيه وجود نموذج إسلامي، قادر على تخليص المجتمع أو الأمة، مما ألم بها من معوقات أو عقبات تَقْعُد بالأمة عن أداء دورها الفاعل في حياة الناس، فضلاً عن انطلاق عناصرها إلى الآفاق الرحبة في الجهات المختلفة التي يفتقد، أو لم نعثر فيها على هذا النموذج الإسلامي الحقيقي.. فالتاريخ بهذا المستوى القادر يصبح

---

١ - مقال بمجلة الأمة، عدد ٤٢ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ، المسلمون وضرورة الوعي بالتاريخ - عبد القادر عبار.

٢- ٣ : مقدمة ابن خلدون، ص ١٣ بتصرف، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون دار الجيل - د ت - بيروت.

«تجربة عطاء في شتى مجالات المعرفة والحركة الإنسانية.. وحصيلة سنن تحكم الطبيعة والإنسان والعالم.. حركة حياة نامية متطورة تتدفق من أعماق الوجدان البشري لتنساح - بعد هذا - على مساحات الزمان والمكان، ولتنشئ - من ثم - دولاً وأحداثاً وحضارات هي نتاج تفاعل خلاّق بين العقل والعاطفة، والمادة والروح، والوعي واللاوعي، والمباشر واللامباشر، والطبيعة والغيب، والتراب والحركة، والقَدَر والحرية..) [١].

وإذا كان المسلم في العصر الحديث، وعبر امتداده التاريخي على اختلال حِقبه السياسية، وحلقاته المتواترة قد فقد - بفعل الاحتكاك الحضاري حيناً، والتقاعس الحضاري، والتخلي عن مصادر القوة والثراء الفكري أحياناً- بعض مقومات شخصيته، وطفت على السطح شخصية تعاني الانفصام والتردي في هُوّة الاستلاب الحضاري والفكري مما جعله يجني، بل يحصد عوامل التخلف الفكري والحضاري التي لاذ بها وركن إليها فانطفأت سراج روحه، وتهدم من داخله، مما جعل المخلصين من أبناء الأمة، ممن أوتوا موهبة الإبداع أن يبحثوا، ويفتشوا عن نماذج تستطيع أن تواجه أو تقاوم من النماذج التي وثقت عراها بالسنن الكونية والأسباب الحضارية، كي يستطيعوا تقديم النموذج الإسلامي الفذ في بعديه العقدي والاجتماعي. فتبعث الشخصية الواعية الفاعلة المبدعة التي تتحرك بوعي على أرض الواقع. مما يجعل النظر في التاريخ، ومحاولة استلهام عناصره المشرقة أمراً حتمياً وضرورياً لاسبيل إلى تجاوزه الآن لفهم الأحداث وتطور المجتمع

---

١ - في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١٢٣، ١١٨، د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة ثالثة - ١٩٨٤ - بيروت.

الذي أصبح العالم فيه الآن، وكأنه قرية صغيرة تستطيع أن تتجول فيها في لحظات!!..

والقرآن الكريم يحفل بكثير من القصص التي لم تأت للتسلية أو الإمتاع والإيناس،بقدر ما هدفت إلى إثارة الفكر ودفعه إلى التساؤل الدائم والدائب عن الحق، وتقديم خلاصات التجارب البشرية عِبَراً يسير على هديها أولو الألباب، وإزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان، وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة، لكي تظل في مقدمة قواه الفعالة التي هي بأمس الحاجة إلى تفجير طاقاتها دوماً.. فيجسد القرآن هذه الأحداث التاريخية في إطارها وزمانها ومكانها؛ لتأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلي) [1]. فترتفع بنا من حالة الرضا بالواقع على التمرد عليه والسموّ فوق ركامه، فننفك من قيود الأسر إلى آفاق الحرية الرحبة، من ثم يصبح الإنسان ذا قدرة على صنع تاريخه دون أن يتعارض مع إرادة الله عز وجل. فإذا كان ذلك فلا بد للإنسان أن يعي وهو يحيا الأحداث أن يشكل هذا التاريخ، ويصنعه على عينه،فإما أن يهبط إلى قاع الأرض،وإما أن ينهض ويسمو نحو آفاق السماء فيخلده التاريخ، ويحيا في ذاكرة الأمة، وتقتدي به نماذجها الإنسانية.

فالشخصية التاريخية في الروايات المصرية غالباً ما ترتبط في حضورها الروائي بالتاريخ الإسلامي، سواء أكان هذا العرض أو الإبداع لا يخرج عن كونه تعريفاً بالشخصية التاريخية في أسلوب أدبي جذاب،

١- التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٠٦، ٩٧، د/ عماد الدين خليل - دار العلم للملايين - ثانية - د ت - بيروت.

فيهيئ تناوله للعامة وشباب المراهقين من الناشئة للتسلية، أو الإمتاع فضلاً عن أغراض أخرى تتصل بفكر وعقيدة المبدع كما فعل الأديب المؤرخ جورجي زيدان[١] فيما أسماه «بروايات تاريخ الإسلام» [٢] الذي بثّ خلالها سُمّه الزعاف.

فيما سيتضح لنا من خلال تحليل بعض شخوص رواياته هذه، وتابعه في هذا المنهج الإبداعي، وإن كان برؤية أو توجه مختلف، الأستاذ المبدع الروائي المرحوم: عبد الحميد جودة السحار «الذي نهج هذا المنهج التعليمي» من خلال إبداعاته، لاسيما ما يتصل منها بالسيرة النبوية أو

١- جورجي زيدان، ولد في بيروت في الرابع عشر من ديسمبر عام واحد وستين وثمانمائة وألف من الميلاد.

ألف مجموعة من الكتب في التاريخ منها: تاريخ مصر الحديث في جزأين، والتاريخ العام في بعض ممالك آسيا وإفريقيا، وتاريخ الماسونية التي يبدو أنه تورط في الانضمام إلى أعضاء محافلها، واعتنق شعائرها. وفي سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر جورجي زيدان العدد الأول من مجلة «الهلال» قام بتحريرها بنفسه إلى أن كبر ابنه أميل فساعده في تحريرها، ثم أخذ جورجي في إصدار مؤلفاته ورواياته التاريخية إلى أن توفي في الثاني والعشرين من شهر يوليو عام ١٩١٤م. راجع: دراسة الأستاذ شوقي أبو خليل «جورجي زيدان في الميزان»، والأستاذ حسين الطماوي في دراسة عن جورجي زيدان، ضمن سلسلة نقاد الأدب.

٢ - إحدى وعشرون رواية أصدرها جورجي زيدان تحت هذا الشعار (روايات تاريخ الإسلام) ظهرت ما بين عامي ١٨٩١ وحتى ١٩١٤ وهي كالتالي:

١- المملوك الشارد
٢- أسير المتمهدي
٣- استبداد المماليك
٤- أرمانوسة المصرية
٥- فتاة غسان
٦- عذراء قريش
٧- ١٧ رمضان
٨- غادة كربلاء
٩- الحجاج بن يوسف
١٠- فتح الأندلس
١١- شارل وعبد الرحمن
١٢- أبو مسلم الخراساني
١٣- العباسة أخت الرشيد
١٤- الأمين والمأمون
١٥- عروس فرغانة
١٦- أحمد بن طولون
١٧- عبد الرحمن الناصر
١٨- الانقلاب العثماني
١٩- فتاة القيروان
٢٠- صلاح الدين ومكائد الحشاشين
٢١- شجرة الدر.

obeikandl.com

حياة الصحابة، كما عُرضَت بكتب السيرة والتاريخ الإسلامي مثل شخصية / رواية: أبو ذر الغفاري - عمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول (ﷺ)، ومحمد رسول الله والذين معه، وأميرة قرطبة.. وغيرها، من الروايات التي عُنيت بهذا التقديم لهذه النماذج الفذة في التاريخ الإسلامي، فكان منهجهم (منهج التجميع) دون مقابلة الأحداث بعضها ببعض أو محاولة استغلالها، فكان التفسير واحداً دون محاولة فهم المعاصرة..) [١].

فهذا الاتجاه نحو التاريخ في الإبداع الأدبي لم يطمح أكثر من تقديم المادة / التاريخ ونقلها من عالم التاريخ إلى عالم الأدب أو الفن دون وعي أو فهم أو إدراك لمقتضيات العصر، أو الإيغال في دهاليز التاريخ، والتقاط ما يراه قادراً على تقديم شيء يتوازى مع العصر أو المستقبل. أي يختلف عن الأرضية التي اقتُطع منها، وإن كان جزءاً من تربتها.. فإن اعتماد النظرة الموضوعية الخارجية (المباشرة)، يؤدي بداهة إلى تعطيل عدد كبير من القوى الفعّالة في فهم التاريخ: كالفطرة والإدراك والانفعال والإيحاء الذاتي والإلهام والخيال.. ولماذا - كما يقول الناقد والمؤرخ الدكتور / عماد الدين خليل - نلجأ إلى فتح نافذة واحدة على التاريخ، إذا كان بإمكاننا فتح عدد كبير منها، يوسع مدى الرؤية، ويلقي مزيداً من الأضواء على الأحداث الداخلية التي يغطيها الظلام؟ [٢].

فهذا النهج يتجه فيه الروائي نحو التاريخ في إطار الحادث/ الماضي، وإن كان يحرص خلال هذه العملية الإبداعية على (المغزى

١- السحار مفكراً وأديباً وسينمائياً، ص١٣٢، عبد المنعم صبحي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٥ - مصر.

٢- في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١١٩.

الرئيس للأحداث دون أن يخضعه لإسقاطات معاصرة، أن يضفي عليه شكلاً قصصياً من الأشكال المعاصرة التي تحيل المادة التاريخية إلى عمل فني له خصوصيته وتأثيره.. إنه يحتفظ للنص بوجوده، فقط هو يصوغه صياغة أسلوبية! [١]. دون تعمق لفاعلية أو استلهام روح أحداثه،كي يسقطها على أحداث عصره أو شخوصه.. فالاستلهام، يتجاوز مقاييس العقل والمنطق المحدود، ويتخطى حدود التحليل الذي يصل إلى هدفه بطيئاً متردداً غير واثق من نتائجه، بينما تحقق الفطرة المدركة أهدافها بسرعة خارقة، بثقة أعمق ويقين أكثر، فضلاً عن أنها (تلقى أضواءها الخاطفة على مساحة أوسع في مجالات الرؤية الإنسانية إلى آفاق أبعد، وهذا يمثل ضرورة يصعب - بدونها - لمن يتعرض للتاريخ - على الذين لا يملكون الفطرة المدركة أن ينفذوا إلى أعماق التاريخ ويستبطنوا معناه، لأن التاريخ ليس حصيلة أحداث خارجية فحسب، بل هناك القوى الداخلية والطاقات الروحية التي تمثل دائماً العامل الأهم في رسم مجرى التاريخ وتحديد مصيره..) [٢].

وعلى الرغم من ذلك فإننا لا ننتظر من هذه المحاولات الأولية إلا أن تكون كذلك..

وهناك من مبدعي الرواية من خطا خطوة إبداعية في إطار المعالجة القصصية الفنية في إبداع الشخصية أو الحدث التاريخي، فيعرض لنموذجه التاريخي في إطار أو شكل فني كي يعالج من خلاله قضية ما

١ - الأدب الإسلامي والبحث عن خصوصية، مقال، مجلة الحرس الوطني، عدد ١٤٣، المحرم ١٤١٥هـ - د/ عبد الحميد إبراهيم.

٢ - في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١٢٢، ١٢٣، بتصرف.

من قضايا عصره الذي يحيا، ويعيش معاناته ومشكلاته من خلال تقنية فنية (الإسقاط)، فيتخذ الروائي الشخصية التاريخية، ينطلق من خلال إحدى زواياها، أو لحظة من لحظات التاريخ الفاعلة، فيحاول تهيئتها على النمط الإبداعي الذي يمكنها من خلاله أن تحمل هموم الواقع المعيش، وتعبر عن آمال الأمة أو آلامها وطموحاتها، فيتعانق الفن والتاريخ، ويفرز نموذجاً مستقلاً وجديداً، فيفعل ويتفاعل مع الواقع من تلك الزاوية أو اللحظة الخاصة، لا نستطيع أن نفصلها عن مشاعر الفنان، ومواقفه الذاتية، وتجاربه وانتماءاته، فهو يفسر التاريخ، ويعلّق عليه، ويقابل بين أحداثه وأحداث الواقع، ومن خلال هذه المقابلة (العلاقة) تتضح معالم النموذج الجديد الذي صنعه الروائي في روايته، الذي يختلف عن النموذج المأخوذ عن التاريخ، وإن كان يتفق معه في شيء ما..

فالمبدع من خلال هذه التقنية لإبداع الشخصية المستلهمة من التاريخ في الإطار الفني الروائي يحاول أن يوجد علاقة بين الماضي والحاضر من خلال إسقاطات على الحاضر يوحي بها النص التاريخي، وهذا الاتجاه يعيد صياغة المادة التاريخية الخام، ينطلق منها كأساس، ثم يحيلها - خلال تشييد البناء - إلى شخصية جديدة تختلف عن الأصل ولا تقف على الماضي، تتجاوزه للتعليق على الحاضر، فيعرض التاريخ - خلال الرواية - (وهو يموج حركة وحيوية، كمسرحية حاضرة للعيان، تجعل من الحدث التاريخي - وكذا الشخصية - فعلاً مستمراً آخذاً شتى الاتجاهات والأبعاد وليس مجرد عالم مسطح، وتقضي على فكرة

الامتداد العمودي للأحداث، لكن تعطي للإنسان فرصة تدبرها أفقياً بكل عناصرها ومكوناتها، ولكن تتيح - في الوقت نفسه - للمبدع فرصة معايشة التاريخ، ومن ثم مدّ أبعاد الرؤية إلى كل جوانب الكينونة الإنسانية فعندما يعيش المبدع / المؤرخ أحداث التاريخ، وينفعل بها، فإن بإمكانه أن يقول لنا أشياء لا يستطيع أن يقولها الأكاديميون الذين تقتصر فاعليتهم على التنسيق والتفكير المجرد...) [١].

ويمثل هذا المنهج من المبدعين المصريين، الأديب المرحوم الأستاذ علي أحمد باكثير في رواياته الإسلامية مثل رواية «سيرة شجاع، وا إسلاماه، الثائر الأحمر». والأديب المرحوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله في رائعته، الباحث عن الحقيقة. والأديب الطبيب المرحوم الأستاذ / نجيب الكيلاني في مجموعة من روائعه الأدبية التي استلهمت التاريخ: مواكب الأحرار، طلائع الفجر، ونور الله، اليوم الموعود، عمر يظهر في القدس، وقاتل حمزة، ورمضان حبيبي، وأرض الأنبياء، وغيرها من الروايات التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية منذ حملات الصليبيين والاحتلال الانكليزي ومروراً بالأحداث العظام في مصر كثورة يوليو ١٩٥٢، وحتى حرب العاشر من رمضان في مصر الحديثة.. يعنى بموضوع الحرية والاستقلال وزرع الآمال في تربة خصبة ونقية في مصر والعالم الإسلامي من خلال رؤية إسلامية قادرة على زرع واحة خضراء متفجرة بالعيون والغدران وسط صحراء تلتهب، يتعانق خلالها الواقع الاجتماعي مع الواقع التاريخي دون إخلال

١- في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١١٧/ سابق.

بالثوابت التاريخية، واختلاطه بإرهاصات المستقبل والآمال المنوطة به،ولا شك أن انطلاقة الشعوب وحركاتها التحريرية الكبرى، والتطورات الضخمة التي تواكبها، إنما تستمد تجاربها، وتمتص خبرتها وغذاءها الروحي لا من الحاضر فحسب، بل من دروس الأمس والصورة المرتقبة للغد المأمول[١].

وهناك منهج آخر، يحاول خلاله مبدعو الرواية في مصر خاصة [٢] البحث عن شكل مستمد من التراث يتمثل في الاعتماد على الرواية، وتعدد مستويات الحكي من نادرة، وعظة، وبيت من الشعر، وحكمة. فالرواية كما يقول الروائي إدوار الخراط (ألبوم) سجل الشكل الذي يحتوي على الشعر والموسيقى وعلى اللمحات التشكيلية..) [٣]، إذ يعتمد هذا الشكل الإبداعي القائم على إحياء منهج تحقيق المخطوطات العربية (استخدام الهوامش والأقواس والمقتطفات) وقد بدأ هذا النهج الروائي المصري، جمال الغيطاني في روايته «الزيني بركات» والتجليات.. وواكبه في هذه الطريقة، محمد جبريل، لاسيما في روايته أوراق أبي الطيب المتنبي، ثم أصبح حالة ذات جاذبية في الوسط الأدبي في العالم العربي، فاستخدمه كثير من الأدباء في العالم العربي. وقد

١- طلائع الفجر - المقدمة، ص ٤ - نجيب الكيلاني.

٢- وإن كانت لا تقتصر على الأدباء المصريين، فهناك في العالم العربي من نهج هذا النهج محمود السعدي في تونس، وإميل حبيبى في فلسطين ومحمد شكري في المغرب إلا أنها بدأت بالمصريين مثل جمال الغيطاني ومحمد جبريل ثم أبو المعاطي أبو النجا.. ممن تقوم تجاربهم على هذا الشكل الموروث (التراثي).. انظر مجلة الثقافة العربية، عدد ٨، السنة ٢- الجماهيرية الليبية العظمى - يوليو ١٩٩٥، حوار مع الروائي جمال الغيطاني.

٣ - نقلاً عن مجلة المسلم المعاصر، عدد ٥٣، ربيع أول ١٤٠٩ / محمد إقبال عروي.

(يتحول هذا الاتجاه إلى ظاهرة يُعَبَّر خلالها عن الواقع العربي الراهن، ويكشف عن خصوصية الحضارة العربية المعاصرة) [١]، كما يؤكد شخصية المبدع الروائي العربي الذي يلفظ العباءة الأوروبية التي أفرخت الأشكال الإبداعية الروائية التي نهجها كُتَّاب العربية في رحلة المخاض الإبداعي العربي، وحتى جيل الستينات. ولعل العدوان الثلاثي وهزيمة يونيو ١٩٦٧ كانتا سبباً في إلقاء هذه العباءة المستوردة، ومحاولة الأدباء التدثر بعباءة عربية خالصة...

وخلال الدراسة التحليلية التي سنقدمها في الصفحات الآتية ستتضح معالم كل منهج خلال رحلتنا مع نماذج الروايات التي سنختارها خلال تناولنا للشخصية الإسلامية في أعمالهم الإبداعية لدى كل كاتب على حِدَة داخل إطار منهجه الفني للإبداع..

١- الحرس الوطني، عدد ١٤٣، سابق.

obeikandl.com

أولاً: منهج جورجي زيدان في تناول الشخصيات الإسلامية.. (المنهج التعليمي):

خلال مطالعتنا لمجموعة «روايات تاريخ الإسلام» للكاتب النصراني «جورجي زيدان»، نجده ينظر إلى الشخصيات الإسلامية من زاوية مظلمة إلى الحد الذي تغيم فيه، وتغيب تماماً عن واقع الأحداث أو الحياة التاريخية،فتبدو هامشية في المجتمع.. لا يتيح لها فرصة واحدة تعبر فيها عن إنسانيتها، وتبرهن على وجودها، أو إسهامها في حركة الأحداث، فالاتجاه الغالب في روايات «جورجي زيدان» التشيع للمسيحيين وإغماط حق الإسلام والمسلمين، فهو دائماً يقدم شخصية مسيحية يجعلها فاعلة ومؤثرة في الأحداث مما يطفئ الشخصيات الإسلامية الأخرى، والمفروض أنها هي صانعة الأحداث في رواياته التي تتناول تاريخ الإسلام، وما ذاك إلا لأنه في حلقه غصة من انتصارات الإسلام على دولة الروم المسيحية ذات الأمجاد القديمة، فهو يستكثر أن تقوى شوكة المسلمين حتى تدمر هذه الدولة العظيمة في نظره، وتسيطر على أراضيها، إنها عداوة متمكنة فيه، جعلته لا يعطي الدولة الإسلامية حقها، وهي في أزهى عصورها وأعظم أمجادها، وذلك مثل شخصياته المسيحية المتعددة التي سنلتقط بعض صور لبعض نماذجها، تسفر في جلاء عن تعصبه هذا ضد الشخصية الإسلامية في رواياته:

ففي رواية «أرمانوسة المصرية» ، وهي التي تحكي تفاصيل فتح مصر بقيادة القائد المسلم «عمرو بن العاص» نراه يحتفي بشخصيتين مسيحيتين هما «أركاديوس» بن الأعرج القائد الروماني، وأرمانوسة ابنة

المقوقس والي مصر عندما فتحها المسلمون، فيخترع قصة حب تربط بين الحبيبين، وينسج خلالهما الأحداث، فكل ما يجري في الرواية يجري من خلالهما، وكأنهما المنبع الذي تتدفق منه الأحداث، فنراه يختفي يهاتين الشخصيتين بالغاً، ينتزع إعجاب القارئ بهما: فأركاديوس البطل المسيحي الذي يهبّ للنجدة، ولا يرهب الظلام، فيمخر عبابه غير هيّاب لما قد يقع له فيه. فعندما يسمع صوت الفتاة مارية التي اختطفها ابن حاكم القرية التي تسكنها قرب بلبيس، تستنجد به «فأرسل نظرة إلى صاحب ذلك الصوت، فرأى ثلاثة أشباح وقوفاً تحت شجرة، ولكنه لم يميز أحداً منهم لشدة الظلام، فأغار عليهم بجواده، وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف، من هم اللصوص؟.. اتركوا الفتاة وإلا أذقتكم المنون بحد هذا السيف، وجرد حسامه، وكان بينه وبينهم نحو عشرين ذراعاً، فلاذوا بالفرار، فتبعهم.. فسار كل منهم إلى ناحية واختفوا بين الأشجار، فخاف أن يبعد عن الصوت، فيخطئ مكان الفتاة فعاد إلى الشجرة التي شاهد الأشباح تحتها، فرأى شبحاً يترامى عند أقدام جواده وهو يقول: حماك الله يا فارسُ، وأنقذك من غوائل الزمان، فقد أنقذتني من مخالب الموت والعار.. فأمسك الفتاة من يدها وخاطبها باللغة القبطية قائلاً: لا تخافي يا فتاة، إنك في مأمن من غوائل الأشرار.. لا تخافي يا فتاة.. قولي من أنت؟».

قالت: إني فتاة مسكينة، اختطفني بعض أولاد الحرام يريدون بي سوءاً، فجزاك الله خيراً على إنقاذي، ولكن احذر أن يغدروا بك وأنت واقف هنا، فإنهم لا يخافون الله، وكأني أرى واحداً منهم تحت تلك الشجرة..

وما أتمت كلامها، حتى شعر إركاديوس بنبلة صدمت فخذه ولكنها لم تصبه.. فتحول عن الفتاة وأسرع نحو الجهة التي جاءت منها النبلة، وصاح، «ويلك يا خائن.. إني والله قاتلك لا محالة، ولا أبالي إذا كنتم مئات أو ألوفاً» وكان الحسام لا يزال مجرداً فوثب كأنه الليث الكاسر خلف الرجل الذي أراد الفرار منه، ولكنه أدركه بضربة جندلته على الأرض وهو يصيح: أخ، لقد قتلتني» [١]. بينما فر الآخرون، وأخذ يهدّئ من روع الفتاة، ويسألها عن أهلها ومكانها، ثم بعد ذلك أركبها الفرس وراءه بعد استئذانها في ذلك قاصداً مكانها حتى سلمها لابن عمها مرقس الذي بهره صنيع هذا البطل الذي تنكر لنفسه أمامهم تواضعاً وشهامة - (قالت مارية: إنه شهم كريم.. أنقذني من مخالب الموت)[٢]. فعده مرقس فضلاً عظيماً لا يعرف كيف يكافئه عليه؟!.

فالكاتب هنا يضع هذه الشخصية في المقدمة من شخصيات الرواية أجمع، ويسمها بالبطولة والإقدام والشهامة، وفي الوقت نفسه شجاعة بغير غرور، إنما شجاعة تنطلق من تواضع وحميمية في حب الخير وإسعاد البشر ومحاولة دفع الشر عنهم، وما ذلك إلا لكونه مسيحياً رومياً فحسب..

وعندما يلتقي بحبيبته أرمانوسة ويجددان العهد على الحب والانتظار، تطلب منه محبوبته أن يرحلا عن هذه البلاد، ويبتعدا عن الحروب حيث الصفاء والسعادة، بعيداً عن المخاطر والقلاقل، فيباغتها

١- أرمانوسة المصرية، ص ٢٠٥ - ٢٠٦، جورجي زيدان، دار الهلال ١٩٨٣ - مصر.
٢- الرواية، ص ٢٠٩ .

بقوله ويده على حسامه: أتريدين أن يفر أركاديوس من وجه العدو.. وهل ترضين به جباناً يخاف الموت؟ فما معنى تقلدي هذا الحسام إذن؟».

قالت: «لا، وحبك.. لا أحب الجبان، ولا أرضى أن يكون حبيبي إركاديوس جباناً، ولكن قلبي لا يطاوعني على أن أرى أو أسمع أن الناس يرمون النبال عليك».

فقال: دعيني إذن أخوض المعامع، فإذا حييت بعدها كنت أهلاً لرضاك.. فلا تندمين على استبدال الـ قسطنطين بي» [١].

فالكاتب يغالي في شجاعة أركاديوس حتى إن أرمانوسة تلك المخلوقة الضعيفة، لا ترضى منه الجبن، وإن كانت شجاعته هذه تؤخر لقاءها به كثيراً، إلا أنها لفرط انبهارها بهذا البطل ففي حبه يهون كل شيء.

وأثناء العودة من لقائه بأرمانوسة يُقبض عليه ويُساق إلى معسكر المسلمين بعد ما أظهر أركاديوس لمن قبضوا عليه شجاعة نادرة انتزعت إعجابهم به فلم يقتلوه، وإنما ساقوه أسيراً إلى الأمير، فوقف بين يديه موثقاً وتقدم إليه وردان وسأله بلسان الروم قائلاً: ألعلك من جند الروم، أم أنت من رجال المقوقس؟.).

قال: بل أنا من جنود الروم، وكلنا جند واحد سواء من الروم أو الأقباط.

فقال له مترجم كلام عمرو: «وما الذي جاء بك إلى هذا المكان».

قال: خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفرداً فأمسكوني، وليست هذه عادة الأبطال، ونحن نسمع أن العرب لا يغدرون..».

---

١ - الرواية، ص ٢٢٦.

قال: «نعم.. إن العرب أصدق الناس عهوداً وأحفظهم لمقام الرجال، ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك.. فأخبرنا بما عليه جندكم ولا تخف شيئاً، فإنك أسير بين أيدينا ولا ينقذك إلا الصدق».

قال: «ونحن لا نعرف غير الصدق شعاراً، ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين، ولست أخشى الموت إذا هددتموني به، أما جندنا فكلهم أبطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدو».

فقال عمرو لوردان: «دعه يجلس...».

فأذن له بالجلوس...

فقال: «لا حاجة بي إلى الجلوس.. وما نحن ممن يملّ الوقوف.. قل ما بدا لك..».

فعجب عمرو لرباطة جأشه وما يتجلى في وجهه من الشجاعة وما ينبعث من حدقتيه من الذكاء، فقال له: «ألعلك من أفراد الجند أو أنت من كبارهم؟».

قال:بل أنا من أفراد الجند.. وأما قوادنا فستلقونهم في ساحة الحرب فازداد عمرو إعجاباً بشجاعته وأحبه لأنه كان محباً للشجعان..

أما جلساء عمرو فاستنكفوا من جرأته، فقالوا لعمرو: «ألا أمرت بقتل هذا الوقح، فإنه تجاوز حدود الحشمة في جوابه؟!..

فأسكتهم عمرو، وقال لأركاديوس: «إني معجب بشجاعتك، ولم ألق بين جند الروم مثل هذه الجرأة.. ولذلك فإني أبقي عليك بشرط أن تخلص لنا الخدمة وتكون واحداً منا...».

فقال أركاديوس: «أما ما ترجوه من خيانتي لدولتي فبعيد المنال.. وتعجيلك بقتلي أجمل بك وبي..» [١].

فالكاتب مازال يلح على البطولة المسيحية، وأن أركاديوس بطل لا يبارى، ولولا كثرة العرب عليه لما أسروه، فهما اثنان وهو واحد، وبهرتهم شجاعته، وحتى عندما يمثُل أمام أميرهم عمرو، لم يخف ولم يهب منظره، ولم يستكن لكونه سقط بين أعدائه، فهو ما يزال غير آبهٍ بما حاق به، أو خائف مما قد يفعله به هذا الأمير، بل إنه ينعى عليهم أنه لولا أنهم غالوه وهو بمفرده لما تمكنوا منه، وأن أخلاق الحرب تأبى ذلك عليهم، فإنه من طرف خفي يغمز بالمسلمين وبأخلاقياتهم في الحرب الذي شهد بها العدو قبل الصديق في تاريخ العسكرية الإسلامية.

إلا أن تعصب زيدان وتحامله على الشخصية الإسلامية حملاه على هذا الجور والتخبط اللذين أورثاه هذا التصور الإبداعي والفكري لهذه الشخصية، حتى إنه يُرجِعُ انتصار المسلمين وفتحهم لمصر، بأنه لم يكن إلا غفلة من أركاديوس الذي كان آنذاك خارج الحصن للقاء أرمانوسة، ولولا ذلك ما أمكنهم تسلق أسوار الحصن وفتح مغاليق البلاد[٢]، والذي جلس بعد، يتجرع المرارة وكأنه هو الذي أسلم الحصن للعرب لتخليه عنه، هذا فوق ما عزاه جورجي زيدان في روايته إلى كون تمكن المسلمين من فتح مصر كان باتفاق مع المقوقس الذي أسلمهم البلاد تخلصاً من صلف الرومان آنذاك.

---

١ - الرواية، ص ٢٣٠ وما بعدها.

٢- راجع الرواية، ص ٣٠٠ وما بعدها.

والعجيب أن عمرو بن العاص أعجب بشجاعته إلى الدرجة التي يريد منها أن يضمه إلى صفوف جنده كأنه لا يجد بين المسلمين فارساً شجاعاً يضاهيه في شجاعته، على الرغم مما لمسه في كلامه من تحامل على المسلمين وعداوة لهم فهذا ما لم يحدث مطلقاً في الحروب الإسلامية.. وذلك لأن جورجي زيدان يريد أن تتوارى الشخصية الإسلامية بكل فضائلها وأمجادها خلف هذا الجلف المتغطرس الذي اخترعه جورجي زيدان اختراعاً؟!!.

كل هذه المغالطات التاريخية، والتحامل على الشخصية الإسلامية في الرواية، لم يكن لشيء إلا لسلب العرب والمسلمين أيَّ مقوم من مقومات البطولة، وأن انتصاراتهم وفتحهم للبلاد لم يكن إلا بالتواطؤ مع أهلها، أو العشق بين إحدى نساء هذه البلاد وأحد الأبطال من الجيش الذي يقاتل العرب.

ومن ثم يُعَرِّض جورجي زيدان بقيمة الفتح الإسلامي، وكون الظفر الإسلامي بهذه البلاد لم يحدث إلا عن طريق المؤامرات كما حدث في أرمانوسة المصرية، وفتح الأندلس حيث تآمر الفونس ابن غيطشة ملك الأسبان واليهود المتمثلون في شخصية «الخادم يعقوب» ضد الملك القوطى رودريك، فهيأ ذلك للعرب بقيادة طارق بن زياد فتح بلاد الأندلس ولقاء كل من الحبيبين (فلورندا وألفونس) ويتحقق أملهما في الزواج، وكأنه لم يجعل زيدان غاية الفتح الإسلامي إلا لقاء المحبين!!..

فإصرار زيدان وتعصبه ضد الحقائق التاريخية الناصعة، لا سيما وهو الذي اختار في رواياته أنصع وأزهى فترات الحياة الإسلامية،

فتشويهه لشخصياتها،أمر يدعو للدهشة (فهذا الاستبداد بالشخصيات بعيد عن روح الفن السمحة (والالتزام التاريخي) الذي تفرض إفساح المجال أمام الشخصيات، لتدلل على حياتها الإنسانية الطبيعية)[١].

بما يقتضيه وعيه الإبداعي، لتتعاون مع مفردات القصص الأخرى على إبراز الفكرة التاريخية التي يعنى بها في عمله الروائي، لا سيما إذا كانت الشخصية الروائية واقعية كانت أو تاريخية أو خيالية ليست النموذج الإنساني الذي يسعى في الحياة، أو قامت بأحداث تاريخية عظيمة سطرتها كتب التاريخ، (وإنما هي خلق جديد يضيف إليه الفنان من ذاته، ورؤيته له ما يبرر مواقفه وسلوكياته في شكل إبداعي يستطيع أن يتيح لنا التعرف على أنفسنا من خلاله، وفي الوقت نفسه تنبئ عن وعي المبدع بإيقاع العصر ونبضه، أو ما ندعوه بـ «الوعي التاريخي») [٢].

فرؤية المبدع زيدان للتاريخ الإسلامي ووعيه بإيقاعه عنصران يحددان طريقة تصويره للشخصيات وموقفه منها. وهذا ما استنبطته من خلال مطالعتي لأعماله الإبداعية لا سيما «روايات تاريخ الإسلام» وبعض القراءات النقدية لأعماله لبلورة رؤيته للتاريخ الإسلامي وشخوصه، ومدى تأثر البناء الفني لرواياته بهذه الرؤية.. من تلك الآراء الناقدة والمنصفة والتي عَرَّت زيفه، وفضحت هواجسه، وكشفت - في سفور فاضح - عن مراوغاته في عرض الأحداث التاريخية، لا سيما ما يتصل بالبطولات الإسلامية، لأن المادة التاريخية التي يعتمد عليها

١- القصة في الأدب العربي الحديث، ١٨٧٠: ١٩١٤، ص ١٧٦، بتصرف، د/ محمد يوسف نجم. المكتبة الأهلية - ثانية - ١٩٦٢- بيروت.

٢- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص ٤٠ / سابق.

زيدان كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالتاريخ الإسلامي الذي يتمتع بقدر عال من الاحترام والتقديس في نفوس الأمة الإسلامية ووجدانها، فلعل العامل الديني للمبدع زيدان هو الذي أيقظ مشاعر النقاد، وشد أنظارهم، قبل رواياته فهو نصراني، ويكتب عن تاريخ الإسلام ورجالاته - لا سيما ما يتصل بالشخصية الإسلامية التاريخية، وما يثار حولها من قضايا تتصل بالسلوك أو الحدث أو العقيدة أو الموضوع (المضمون الفكري للرواية)، فقد تحفَّظ كثير من النقاد في قبول منهجه في إبداع رواياته تحت هذا المسمى «روايات تاريخ الإسلام» [١].

ومن ثم ندرك مدى افتئات «جورجي زيدان» على تاريخ الإسلام وأحداثه حين يدعو رواية من رواياته - وهكذا أكثر رواياته إن لم تكن كلها - بأنها تحكي تاريخ الإسلام في ولاية من ولايات الإسلام آنذاك، وليس لها من هذا التاريخ وجلاله إلا هذا الادعاء الاسمي، فإنها تتناول حياة امرأة نصرانية، وعلاقاتها الغرامية مع أحد بني جلدتها ودينها كما رأينا، فأين الإسلام وتاريخه وأبطاله في هذا الموضوع، حتى يعنون زيدان به هذه الرواية؟ أليس هذا الأمر مثيراً للتساؤل والدهشة؟!!.

أما الشخصيات الإسلامية التي قدمها زيدان في روايته فهي شخصية بارزة في تاريخ الأمة الإسلامية، لما لها من مشاركات فاعلة، وبطولات فذة، ومواقف جليلة ونادرة في ذاكرة الأمة، وبمقدار جلال

١- راجع كتاب الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (الملاحق) ذيل الدراسة، ص ١٥٥ وما بعدها. والقصة في الأدب الحديث، ص ١٩٤، مقدمة رواية أرمانوسة المصرية للدكتور / سيد حامد النساج، وكتاب مؤلفات في الميزان للأستاذ أنور الجندي، وكتاب جورجي زيدان في الميزان لشوقي أبو خليل، حيث تناول كل روايات جورجي زيدان بالتحليل الأدبي والنقد التاريخي.

هذه البطولات وتفرُّدها تتمتع هذه الشخصية بالحياة في وجدان الأمة إلا أن هذه المعطيات الهائلة لهذه الشخصية لم تشغل من رواية زيدان إلا بضعة سطور لا تتعدى القطرة في البحر العميق!!.

«فسأل مرقس عن اسمه: فقالوا إنه البطل الشهير عمرو بن العاص، وكان قد سمع به كثيراً فتفرس فيه جيداً، فإذا هو قصير القامة، وافر الهمة، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقبان، تأتلق عليه حُلّة وعمامة وجبة..» [١].

فهذه صورة البطل الشهير «عمرو بن العاص» في نظر زيدان!! وكأنه ينكر عليه إسلامه، إذ الإسلام لا يستطيع أن يقدم مثل هذا البطل في نظر جورجي زيدان!!..

ولم يعجب من هذا البطل إلا بِقصَر قامته، وثيابه الموشاة، وكأن بها العقبان..!! وأيُّ إعجاب هذا الذي أفرز هذه الصفات المظهرية في الوقت نفسه، وكأن هذه الهيئة التي جاءت عليها صورة البطل الإسلامي الفاتح، والصحابي الجليل، لم تأخذ في وجدان زيدان إلا الهيئة الشكلية التي تقتحمها العين في لحظة وقد تنساها بعد ذلك. لكن الصفات التي تنبئ عن جلال الشخصية واحترامها وتقديرها، والتي تلمس في الأعمال والمواقف لم يتعرض لها جورجي زيدان، مع أن هذه الملامح هي الأبقى والأدوم التي حرص الإسلام على أن يتصف بها المسلمون في شتى الميادين..

١- رواية أرمانوسة المصرية، ص١٢٦، دار الهلال - ١٩٨٣ - القاهرة.

ولعل هذا التصور الزيداني «للبطل المسلم» الذي أهمل الدور الحقيقي لعمرو بن العاص «فما تاريخ الإسلام إلا الجهاد في سبيل الله، وما اكتسب عمرو بن العاص، وغيره من الأبطال الفاتحين، البطولة، والجلال، إلا لتفانيهم في نيل هذا الشرف العظيم، فأين إذن هذه البطولة ومقوماتها من الأخلاقيات والسلوكيات التي أضفاها الإسلام على هذه الشخصيات، من هذا التصور والوصف المنحاز فكرياً، والميت فنياً في الرواية!!.

ويعرض في موضوع آخر (فصلاً مستقلاً) تحت عنوان «الإسلام» عرض فيه لإسلام البطل عمرو بن العاص في شيء من المباشرة والنقل الكمي، مما ورد في أخباره التاريخية مما سجلته أسفار التاريخ في جفوة وتيبُّس، ولتتأمل هذا الحوار بين زياد العربي وعمرو بن العاص:

فقال زياد: وكيف كان إسلامك؟.

فقال: أما إسلامي فجاء متأخراً.. وقد كنت من أعداء النبي (ﷺ) فإنه لما قام يدعو الناس إلى التوحيد اضطهدته قريش، وشددوا النكير عليه حتى اضطر أصحابه أن يهاجروا إلى النجاشي (ملك الحبشة) فأمَّنهم، ثم أرسلتني قريش ورفيقاً لي بهدية إلى النجاشي، ليسلم المهاجرين إلينا، فأبى.. وكان عوناً لهم علينا فعظم عندي أمر صاحب الدعوة ووقعت في نفسي رهبة منه، ولكني بقيت على دين الجاهلية إلى السنة الثامنة للهجرة، وأنا في أثناء ذلك أفكر في أمره (ﷺ) فوجدت أعماله ناطقة بصدق دعواه، فاجتمعت يوماً بخالد بن الوليد، وعثمان ابن طلحة العبودي، وهما لم يسلما بعد، فقلت لخالد: أين يا أبا

سليمان؟ قال: «والله قد استقام الميسم!.. إن الرجل لنبي، اذهب والله فحتى متى؟! فقلت: ما جئت إلا للإسلام، فقَدِمنا على النبي (ﷺ)، فتقدم خالد فأسلم، ثم تقدمت أنا وكانت أول مرة لقيته وجهاً لوجه فملأتني الرهبة لمنظره وما جمع الله فيه من المحاسن..».

فاشتاق زياد لمعرفة أوصاف النبي، فقال: «وما الذي أرهبك منه؟ وما هي أوصافه؟...

فقال عمرو: «والله يا زياد لا أنسى ساعة لقيته فيها، فإن صورته لاتزال مرسومة على لوح صدري منذ لقيته يوم جئت ألتمس الإسلام.

وأما صفاته: فهو ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس واللحية، خشن الكفين والقدمين، مشرب بالحمرة. وكان حين لقيته واقفاً يمشي، فإذا هو يتكفأ كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان أدعج العينين، سبط الشعر، سهل الخدين، إذا التفت التفت جميعاً، ولعله كان إذ ذاك قائماً من الصلاة، وقد كلّل العرق وجهه كاللؤلؤ الرطب، وفوق كل ذلك، فإن الهيبة كانت تجلّله، فلم أستطع النظر إليه طويلاً، فوقفت بين يديه، فقال لي: «ما جاء بك يا عمرو؟» قلت: «جئت أطلب الهداية يا رسول الله، قال: «أتريد الإسلام. فقل: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» ثم دخل عثمان بن طلحة، فقال مثل قولي، وصلينا جميعاً، وقد شعرت والله يا زياد بغشاوة انقشعت عن عيني ساعة الشهادة) [١].

---

١ - الرواية، ١٤٦ وما بعدها.

فماذا يشكل إسلام عمرو في أحداث الرواية؟ فسؤاله في غير مكانه، إلا أن جورجي زيدان ربما لم ينس من وقت لآخر أن مهمته تعليم التاريخ، فينسى نفسه، ويسهب في سرد أحداث تاريخية دون داع، أو وعي فني - في الوقت نفسه - بتوظيفها، والإفادة منها الإفادة المرجوة من العمل الفني (الرواية).

من ثم تأتي شخصياته مهلهلة النسج، فتبدو كأنها مخلوقات ميتة، عاجزة عن النبض والحركة والتدفق، كما يقع حتى في الواقع التاريخي فإنه كثيراً - وكما هو المثال - ما يكتفي بنقل ما أوردته كتب التاريخ من معلومات وأقوال عن شخصيته [1]، وكأنه لا يدري أن الشخصية - واقعية أو تاريخية - ما هي إلا مجموعة من المشاعر والأحاسيس والدوافع التي تدفعها لسلوك ما، خيراً أم شراً، سامياً أم وضيعاً، تضع الشخصية في سياق يمكننا تصنيفها في إطار معين، تحدده ملامحها وطباع أحاسيسها ومشاعرها، بل ومزاجها الشخصي، فتبدو الشخصية حية نابضة قادرة على إقناع المتلقي، بما تحمله من مضمون أو فكر، وما قامت به من أفعال أو قدمته من سلوكيات أو ما صنعت من أحداث.

ومن ثم ظهرت شخصية «عمرو بن العاص» ، وهو البطل الإسلامي العظيم، في صورة باهتة، شاحبة، ولا نغالي إن قلنا ميتة ليست بذي قيمة أو فاعلية في تحريك الأحداث الروائية، فلم تكن إحدى قوى الدفع في تقدم الرواية أو تدفق ينابيع النهر الروائي، من ثم لم نخرج

١- اتجاهه نحو نقل المعلومات المثبتة في بطون كتب التاريخ، يومئ بيقينه أن شكا ماسيواجهه في مهمته، وإن كان يلجأ إلى اختراع أحداث لم تكن في كتب التاريخ، ليستطيع من خلالها أن يصنع مايحلو له من افتراء وإيهام ..

من هذه الرواية بانطباع معين أو واضح عن هوية هذه الشخصية، وإذا كانت الشخصية بوصفها أداة فنية وعنصراً مهماً تحقق التواصل بين المبدع والمتلقي فهي في الوقت نفسه التي تقوم بالدور الفني في بناء الرواية، تحمل موقف الأديب ورؤيته، وإلا اتُّهم المبدع إن صح التعبير - بالفقر الإبداعي.. ونضوب ينابيع الموهبة الإبداعية!!.

وموقف زيدان من شخصية عمرو بن العاص «البطل الإسلامي الفاتح موقف يشوبه التعصب والازدراء مما يتنافى مع أصول الأمانة التاريخية والصدق، فلم نستطع أن نتبين في روايته إلا الدسائس والأكاذيب، والتغيب والاستهجان للشخصيات الإسلامية التي تتمتع بحضور وحيوية في واقعها التاريخي، فكيف بها باهتة وجافة ومحطمة في رواية زيدان؟!!.

مع أن هذه الشخصية هي التي صنعت أحداث الفتح الإسلامي لمصر، وقدم على الخليفة عمر بن الخطاب لكي يأذن له في فتح مصر، لأنه أعرف الناس بمصر وبشعبها حيث كانت تكثر رحلاته التجارية إليها. فكيف يتناسى الدور الكبير لعمرو بن العاص من يريد أن يؤرخ لفتح مصر؟!.

إلى أي حقيقة يستند زيدان في ادعائه؟! أهي حقيقة الفن أم التعليم؟!، ما الذي يضطره إلى اختراع شخصيات أسند إليها بطولات ليبهر القارئ بعظمة هذا المسيحي أو ذاك؟!.

أما عن حقيقة الفن فهي بعيدة عن حقيقة الفن وذلك، لأن الفنان مطالب بأن لا يغير في التاريخ الحقائق الجوهرية التي إن أُسقطت

ضاع التاريخ أو كاد. فالفن يبيح للمبدع إذا تعرّض للتاريخ أن يغيّر ويزيد ويحذف بشرط ألا يطغى ذلك على الحقائق الثابتة، والتي لا يمكن إغفالها من الأحداث التاريخية، ولم يلتزم زيدان بذلك.

أما التعليم فجورجي زيدان لم يقم بتعليم النشء البطولات والتضحيات التي ينبغي أن تتحلى بها بطولات رواياته، اللهم إلا إذا كان يريد تعليم النشء البطولات المسيحية في روايات تتناول تاريخ الإسلام (روايات إسلامية). هذا شيء مثير للضحك.

فهذه المغالطات والادعاءات تكشف عن رؤية الكاتب النصراني «جورجي زيدان» لتاريخ الإسلام، وتصوره لنماذج البطولات المضيئة، فإنه يتعامل معها من منطق التعصب لعقيدته، فكأنه يحمل على عاتقه - شأن أكثر المستشرقين، ودعاة التنصير من المبشرين في الشرق الإسلامي مهمة تزوير التاريخ، والنبش في مخابئه عن بؤر الفساد الاجتماعي، والوهن أو التمزق السياسي، فيحسر عنها الغبار، ويحاول رصدها واتخاذها منطلقاً، وأساساً في الوقت نفسه لتصور التاريخ الإسلامي، وعندما يصادفه اللؤلؤ فإنه يهيل عليه التراب ويطمره، فإن لم يستطع أغرق في تشويهه وتحقيره إلى الحد الذي يجافي الموضوعية والصدق والأمانة العلمية..

لقد سلب جورجي زيدان الإسلامَ قدرته على تغيير النفوس والطبائع التي امتاز بها، وأثبت جدواها مع كل من دخل فيه، فإننا نراه - ويشهد بذلك التاريخ - أنه يتغير من النقيض إلى النقيض بين عشية وضحاها، لمجرد أنه اعتنق الإسلام باقتناع ووعي...

وقس على ذلك شخصيات رواياته التي استدعاها «زيدان» من التاريخ الإسلامي والتي فقدت كل ما ينهض بها من مقومات فنية وفكرية - قصداً - لقطع التواصل بينها وبين المتلقين من شباب العالم الإسلامي الذي أراد لهم استبدال التاريخ الإسلامي والبحث في مصادره والاستغناء عنه برواياته التي اتخذها مسرحاً أو ساحة لترويج مغالطاته التاريخية، فيقطع أسباب التوادّ بين هذه الشخصيات الإسلامية وشباب الأمة. فينبتُّ ما بين الأمة وتراثها التّليُّد ولا سيما إذا كان جورجي زيدان لم يتحر مصادره، أو يخطط لرواياته، فإن مراحلها بنت اللحظة التي تتطلب سد الفراغ المتاح له في مجلة الهلال التي يصدرها «إن ما نشره من روايات في الهلال إنما هو ابن يومه فلا نكتب من الرواية عند كل هلال إلا ما نحتاج إلى نشره في ذلك الهلال.. إننا ننشر الفصل من الرواية، ونحن على غير بيّنَة من الفصل الثاني، أي أننا نصطنع حوادث كل فصل، أو بضعة فصول في حينها، ويبقى سائر القصة في عالم الغيب، فلو سُئِلنا أن نقصَّ ما بقي منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً...» [١].

وفي رواية «عبد الرحمن الناصر» أمير الأندلس في الخلافة الأموية لم يتعرض جورجي زيدان للبطولات العظيمة، التي أبلى المسلمون بلاءً حسناً في فتح هذه البلاد، إلا أنه عُنِيَ بالصراع القائم بين عبد الرحمن الناصر الأمير والبطل الإسلامي،وبين ولديه الحكم وعبد الله على الاستئثار بجارية، وصور هؤلاء الثلاثة في صور حيوانات هائجة للاستئثار بهذه الجارية على ما في قصورهم من الجواري الحسان ما لا

١ - نقلاً عن الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص٤٥، فيما نقله مؤلفاه عن الهلال، عدد فبراير ١٨٩٩م.

يستطيعون حصره.. فعَلام الصراع الذي اضطرم بينهم؟ لا نعرف، وربما لم يكن هذا السبب قائماً إلا في عقل وذاكرة جورجي زيدان كي يطمس حقائق هذه البطولات، ويطفئ شخصيات من أفرزوا هذه البطولات، بخاصة أن الدولة كانت في عنفوانها لم تخمد جذور الحماسة في نفس منشئها (عبد الرحمن الناصر) وأبنائه، فلو أنه اختار زمناً غير هذا الزمن لقلنا إن التّرهُّل قد أصاب الدولة بسبب الرفاهية التي يعيش فيها أمراؤها، وأنها بدأت تتقوض وتنهار بسبب الفساد الذي عم، ولكنّ عبد الرحمن الناصر وأبناؤه ما زالوا في رباط وجهاد طمعاً في تثبيت أركان الدولة الجديدة الأموية التي أقامها عبد الرحمن بجهاده وكفاحه.

نحن لا نصدق زيدان في زعمه وادعائه.. وكأن زيدان عظم على نفسه أن يذكر لهؤلاء بطولات، وهي كانت بطولات على جيش الروم أو الفرس أو القوط ممن يدينون بالنصرانية أو الوثنية، فلم يجد حرجاً في تمييع هذه الأحداث أو تلك البطولات، حتى تستريح نفسه أو يطمئن قلبه، ولو كان ذلك الخلط والغمط قائماً في نفس جورجي زيدان. وعبد الرحمن الناصر هذا في كتب التاريخ: كان سلطانه أعظم ما كان، وأعز ما كان الإسلام بملكه.. وحكي أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التي صفت له دون تكدير، يوم كذا، ويوم كذا من شهر كذا.. وعدت تلك الأيام، فكانت أربعة عشر يوماً، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، مَلَكَها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام (٣٠٠-٣٥٠) هجرية، ولم

تصف له إلا أربعة عشر يوماً) [١] فهل وجد من الوقت ما يتصارع خلاله مع أبنائه على جارية، وأيُّ جارية هذه التي تشغل بيت الأمير آنئذ - إنها جارية مجهوله لا وجود لها في الواقع بدليل أن زيدان سماها عابدة، ولهذا الاسم مدلوله، وكأنه يشير إلى أنها هي وحدها التي تعبد الله، وهؤلاء متكالبون عليها يعبدون الشهوة..

كما يذكر أن الناصر كان يحتفي بالتنجيم والمنجمين، فيحتفي بسعيد الوراق الذي احتفى جورجي زيدان به وجعله الشخصية المحورية في روايته فهو وراق ومنجم، وكذلك يدير الصراعات داخل القصور، لاسيما بين الناصر وأولاده بسبب الجارية «عابدة» ليتلهى بها الناصر ويترك لسعيد جاريته الزهراء، فإنه كان يعشقها، وهي كانت تبادله نفس الشعور، إلا أن وجودها في قصر الناصر يمنعها من تحقيق أمنياتها.

يقول سعيد:

« لاينبغي لمولاي - حفظه الله - أن يستسلم لحقير مثلي، ولا أن يركن إلى التنجيم كثيراً فإنه قد يخطئ»..

فأعجب الناصر بتواضعه وزاد ثقة به، فقال: «إن قولك هذا يزيدني ثقة بعلمك.. فإني لم أر بين المنجمين الكثيرين في قصري من يعترف بالقصور مثلك..[٢]» .

كيف يقنع عبد الرحمن بالتنجيم الذي لم يقره الإسلام، بل أزرى به، وحذر منه الرسول كثيراً، ثم كيف يثق في التنجيم، وهو الذي أقام

١- راجع جورجي زيدان في الميزان، ص ٢٢٦ فيما نقله عن نفح الطيب للمقري جـ١، ص ١٧٩ . وكذا شهادات أخرى لكتاب أجانب.. ص ٢٢٦، ٢٢٧ .. شوقي أبو خليل.

٢- رواية عبد الرحمن الناصر، ص ٦١، ١٦٢، ١٦٣، جورجي زيدان - الهلال - ١٩٨٤ - مصر.

الدولة وسط أهوال أحاطت به، وأخطار أوشكت أن تفتك بحياته منذ أن فرّ من تعقُّب العباسيين له، وتنقُّله من بلد إلى بلد، حتى وصل إلى الأندلس وحيداً مطارداً مهدداً. وعلى الرغم من ذلك تمكن بقوة عزيمته وإصراره وشجاعته من إعادة ملك الأمويين على نحو آخر وفي بلاد أخرى، وهي الأندلس دون أن يصحبه جيش أو يحيط به أنصار، إنها رحلة تشبه المعجزة، ولو كان في رحلته تلك الغامضة أنبأه منجم بما سيصير إليه حاله لما صدقه، فأنّى لمقهور مضطهد أن يصبح ملكاً فيما بعد..؟

إن شخصية عبد الرحمن الناصر بكل ما عرفناه عنه بعيدة جداً عن الاحتفاء بالمنجمين، أو حتى تقبُّل كلامهم..

ويحاول هذا المنجم الماكر أن يغري عبد الرحمن الناصر بابنه ويزعم أن الجارية الزهراء - أقرب الناس إلى قلبه - هي في قصر ابنه الآن، فإنه رأى الخوف يأتي لأمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده..) [١].

فالناصر هنا الأمير والبطل الإسلامي غِرّ وعبيط في نظر جورجي زيدان، يمكن لمثل سعيد أن يحتال عليه، ويصدق بما يرمي به، ولو كان ذلك تآمراً من المنجم حتى يصل إلى مآربه فيلهو بصراعه مع أبنائه، ويخلص هو للجارية الأثيرة لدى الناصر والحبيبة إلى قلبه، وقد كان له ذلك عندما استأذنه المنجم في أن يدرب له الفتاة على شيء تقوله في حضرته[٢].

١- رواية عبد الرحمن الناصر، ص ٦١، ١٦٢، ١٦٣، جورجي زيدان - الهلال - ١٩٨٤ - مصر.
٢- الرواية، ص ١٦٥.

فالمتأمل في وصف هذه الشخصيات ورسمها بهذه الرؤية المتعصبة، يجدها لا تختلف عن غيرها من الشخصيات الإسلامية التي طمسها زيدان طمساً، وألحّ على طمس الحقائق، وأفرط في تشويه وطمس البؤر المشرقة والمضيئة في الشخصية التاريخية الإسلامية، لا سيما وهذه الشخصيات تمثل بحضورها الدعوة الإسلامية، في قمة مدّها وعنفوانها، وترمز إلى فكرة نبيلة حرص الإسلام أن يبثها في أفئدة معتنقيه، أعني فكرة الجهاد، والواقع أن هذه الفكرة هي التي تعطي للعمل الفني (روايات تاريخ الإسلام) معنى، إن كان هناك معنى يذكر وراءها.. وإن كنت في ريب من وعي «زيدان» به. فالقراءة الباطنة لروايات زيدان تسمح للناقد استناداً إلى وقائع أو أحداث الرواية المستمدة من أخبار الفتح - وفي ضوء الإضاءة التاريخية لظروف العصر - بالتنبؤ بما يكمن وراء ظاهر الحوار، فالنص الروائي يشف عن فكرة الجهاد ولا يجسدها في مواقف حية [١].. تنبض بالحياة أو تهبها لهذه الشخصيات فتبدو وكأنها تعيش معنا، داخل كلٍ منا كائنات حية تفعل ما تفعله وتقول ما تقوله، وتجارينا في حياتنا بكل شؤونها ومشاركتها عواطفها وأحاسيسها فنتبادل الهموم هماً بهمّ، والعواطف حباً بحب، وكرهاً بكره، وتكون بهذه شخصيات أو نماذج إنسانية فاعلة وذات أبعاد وآفاق متنوعة.. وإن لم يستطع الروائي أن يقدم مثل هذه المقومات أو المعطيات - شأن زيدان في إبداعاته - جاءت شخصياته باهتة وباردة، منعدمة الدور في بناء الرواية فتبدو في الرواية وكأنها

١- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص: ٤١/ سابق - بتصرف.

رقعة في ثوب مهلهل لم تزده إلا تمزيقاً وتشويهاً، فكانت هامشية الشخصيات وعدم اكتمالها له دوره في تخلخل البناء الروائي وتهدمه..

أما الأديب عبد الحميد جودة السحار[١]، وإن كان يشارك «جورجي زيدان في منهج تعليم التاريخ الإسلامي في إبداعه الروائي، الذي يستلهم التاريخ بأحداثه وشخوصه مثل روايات: «أبو ذر الغفاري» و«بلال مؤذن الرسول (ﷺ)» و«سعد بن أبي وقاص» ، و«أبناء أبي بكر الصديق»، و«حياة الحسين» ، و «عمر بن عبد العزيز» ، وملحمته التاريخية «محمد رسول الله والذين معه».. التي صدرت في عشرين جزءًا والتي شغلت من حياته في إعدادها ما يقرب من الثلاثين عاماً، فجاءت من إبداعه في الذروة، حيث تربعت على قمة أعماله الإبداعية (حافظ خلالها على الحقيقة التاريخية، لم يدون حادثة إلا لها سند، واختار أقرب الروايات المختلفة إلى المنطق وروح الدعوة) [٢].

تناولت هذه الملحمة حياة العقيدة الصحيحة رحلة التوحيد من لدن آدم (عليه السلام) وحتى وفاة رسول الإسلام سيدنا محمد (ﷺ).. هذا الامتداد التاريخي، أتاح للسحار حرية الحركة داخل الإطار التاريخي، واختيار الأحداث والشخصيات ذات الحضور والتدفق والامتلاء، كي يوظفها خلال العملية الإبداعية التي وصلت إلى آلاف الصفحات...

١- ولد عبد الحميد جودة السحار في ٢٤/ أبريل ١٩١٣ في حي باب الشعرية بالقاهرة، تنوعت مجالات إبداعه فكتب القصة القصيرة والرواية التاريخية أو الواقعية.. خلال رحلته الحياتية الممتدة التي تقلب فيها في وظائف مختلفة في مجال التجارة والاقتصاد أو الفن (رئيساً لمؤسسة السينما، وهيئة السينما والمسرح).

راجع التيار الإسلامي في قصص السحار، د/صفوت يوسف زيد. وهذه حياتي للسحار نفسه.

٢- السحار: رحلة إلى السيرة النبوية، ص ٤٥، محمد جبريل - دار مصر للطباعة - دت - القاهرة وصدرت السيرة ما بين أكتوبر ١٩٦٥ وحتى صدور الجزء الأخير في ديسمبر عام ١٩٧٠م.

كان السحار يؤمن بثراء هذا التاريخ الإسلامي، وقيمته العظيمة في حياة الأمة الإسلامية وذاكرة شبابها، لا سيما الذين وعوا تسرب كل شيء من بين أصابعهم، فلم يبق لهم إلا هذا التاريخ المجيد، (لقد أحسست أن التراث الإسلامي، والثقافة العربية يمثلان شيئاً هاماً وجوهرياً داخل حلقات التطور الفكري لمصر عبر العصور، وأنه لا يمكن تطوير الأدب وتطوير الثقافة المصرية دون العودة إلى استلهام هذا التراث، وتحقيقه على المستويين الفكري والفني، لذلك كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضم هذه الألوان من الثقافة الإنسانية بشكل عام...) [١].

فالسحار عندما راودته عملية إبداع قصص أو روايات أدبية، استرعى نظره هذا التراث الثري فراح يستلهم معلوماته من هذا المصدر الإبداعي الثري، فأصدر ثلاث عشرة رواية تاريخية منها رواية واحدة تمثل الاتجاه نحو التاريخ الفرعوني لمصر القديمة (أحمس بطل الاستقلال)، بينما كانت سائر قصصه الأخرى تتصل في تصميمها الفكري بالتاريخ الديني الإسلامي، مما يدل على احتفال الكاتب به وإيمانه بثراء القيم والمثل، وبثّ روح الأمن والطمأنينة في النفوس البشرية، بعد أن أنهكتها قيم الحياة المادية وما تمر به من مشكلات، وما طبعت به الناس من قلق وخوف.. إنه (السحار) تعرّف منذ اللحظة الأولى على نفسه، واكتشف الطريق الموصل إلى الغاية، فانطلق يجوب آفاق الماضي بحاسته الباصرة، ووعيه الرشيد، وحسه المرهف والشفيف، في الوقت نفسه

١- المرجع نفسه، ص ٩، محمد جبريل - سابق. والكلام للسحار الروائي.

منقّباً عن كنوزه المطمورة، ونماذجه المشرقة الفريدة على امتداد خارطته منذ فجر الدعوة الإسلامية ذات البطولات الفائقة المدحورة في دهاليز التاريخ، (اتجه إليها بقلب مفتوح ووعي متبصر، يستمد منه إلهامات فنه، وخرج إلى الناس بآيات من الفن الواعي الذي جمع بين جمال الإبداع وجلال الإيمان) [١].

من هذه النماذج الإسلامية في تاريخ الدعوة الإسلامية ممن صنعتهم العقيدة الإسلامية، وخلقتهم خلقاً جديداً (بلال بن رباح) العبد الحبشي الذي كان مولى لأمية بن خلف، إلا أنه عرف طريقه إلى النور فآمن بمحمد هذا النبي الذي جاء بدين جديد، دين صادف رضى وطمأنينة في نفس بلال، لكن سيده ما زال على شركه وصلفه وعناده، فإنه يسعى جاهداً إلى رد من يعرف ممن اعتنقوا دين محمد، فما باله عندما يعرف أن عبده قد اعتنق هذا الدين؟ ولكنّ بلال لن يثنيه عن معتقده شيء ولو كان ثمن ذلك خروج روحه، فإنه أهون عليه من أن يطيع سيده في ذلك..

- الويل للعبد إن صدق ما بلغني عنه[٢].

وخلال رحلة العذاب مع أمية تكشفت شخصية بلال العنيدة الصابرة على عذابات وآلام فادحة كادت أن تفقده حياته، إلا أن الإسلام الذي اعتنقه كان الوقود لروحه، يدفعها نحو آفاق العزيمة والعظمة الإنسانية الرائعة..

١- التيار الإسلامي في قصص السحار، ص ٩١.

٢- بلال مؤذن رسول الله، ص ٢٥، عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة - د ت - مصر.

لنقف أمام بعض المواقف العظيمة في حياة هذه الشخصية التي ترينا كيف خلق الإسلام هذا الإنسان الذي كان بالأمس مهملاً في حياة الجاهلية، خلقاً جديداً فأصبح بلال إنساناً يشغل مكانه اللائق بإنسانيته وعقيدته..

فعندما جلس نفر من الصحابة يتذاكرون فضل بعضهم، وكان من بين ما ذكروا فضل بلال في الإسلام، وصنائعه العظيمة، إلا أن بلالاً - على كثرة ما صنع - لم تزهُ نفسه أو تته عجباً بما صنع، فإذا هو مقبل عليهم، فما إن رأوه حتى كفّوا عن الحديث:

- ما هنالك؟

- فقال أحدهم:

- كانوا يذكرون فضلك، وما قسم الله لك من خير.

- إنما أنا حبشي كنت بالأمس عبداً.

وجمع أحدهم أطراف شجاعته وقال:

- إن أناساً هنا يفضلونك على أبي بكر.

فتغير وجه بلال، ونهض من مكانه غاضباً وقال:

- كيف يفضلونني عليه، وأنا حسنة من حسناته. [١]

فسيدنا بلال لم يفرحه هذا الإطراء شأن عامة الناس، إلا أنه لا يفتأ يَذكِّر نفسه والناس بأنه عبد، كان إلى وقت قريب عبداً، وأن فضل أبي بكر لم ينسه أبداً، فهو لا يعدو كونه حسنة من حسناته.

١- الرواية، ص ١٠٤، ١٠٥.

هذا خُلقُ التواضع الذي طبعه الإسلام عليه، فهو يعرف حدود نفسه ولا يغريها - مهما صنع - بصنائعه في الإسلام، فإن فضل الإسلام عليه جمٌّ وعظيم.

وهل يركن إلى الراحة بعدما فارقه النبي (ﷺ) وصاحبه الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه)، لا لم يأنس هذه الدعة أو السكون وجيوش المسلمين هناك تثير الغبار في سبيل الله:

فأتى بلالٌ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، واستأذنه في الخروج للجهاد، فقال له عمر:

- ألا تبقى يا بلال بجواري كما كنت بجوار النبي وأبي بكر؟.
- أحن إلى الجهاد يا أمير المؤمنين، ولا أستطيع عليه صبراً.
- ابق يا بلال فإني في احتياج إليك.
- بالله دعني ولا تحرمني الأجر والثواب.
- لك ما تريد يا بلال وإلى أين تتجه؟
- سألحق بأبي عبيدة في الشام.
- سر على بركة الله...[1].

هاهو بلال ينطلق إلى الجهاد في سبيل الله، لأنه مسلم يعرف قيمة الجهاد في حياة المسلم وينفذ أمره في دعوته للجهاد، فلن يكتمل إيمانه إلا بالجهاد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[2]. فلبّى

١- الرواية، ص ١٠٦.
٢- سورة الأنفال، آية ٧٤.

بلال النداء، ولحق بركب المجاهدين يحرز النصر تلو النصر في جيش الإسلام.. وظل هكذا حتى دنا الرحيل وأحس دبيب الموت في جسده: فغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة:

- وافرحتاه! غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه.[١]

فالإسلام هو الذي خلق هذه الشخصية الإسلامية خلقاً فريداً، استطاع بلال أن يحقق ذاته، وما ذلك بغريب (فإن العقيدة - التدين - عنصر أساسي في تكوين الإنسان، والحس الديني، إنما يكمن في أعماق كل قلب بشري، بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان مثله في ذلك مثلُ العقل سواءُ بسواء) [٢].

فالسحار كان مدفوعاً نحو التاريخ الإسلامي لما يتميز به هذا التاريخ من الثراء والجلال، ووعيه بأهمية إيقاظ مشاعر الأمة وإثارة ذاكرتها التي ران عليها من مقومات التخلف ما يكاد أن يفقدها هويتها وتفردها في الحياة، لا سيما في عصر تكالب فيه أعداء الأمة، وتداعى المتآمرون منهم من كل صوب وحدب، كما يتداعى الأكلة على قصعتهم!!.. مما يجعل إيقاظ وعي الأمة والاتجاه نحو تاريخها الخالد أمراً ضرورياً في مواجهة حملات التغريب الفكري والثقافي، ومحاولات التشويه التي كان يمارسها أمثال جورجي زيدان للرموز الإسلامية الناصعة في تاريخ الأمة الإسلامية.

١- الرواية، ص ١٢٥ .

٢- المعتقدات الدينية، ص ٧، جفري باندر - ت د / إمام عبد الفتاح/ عالم المعرفة، عدد ١٩٧٣ مايو ١٩٩٣.

من هذه الشخصيات التي عُني السحار كذلك بتجلية دورها العظيم ومواقفها الإسلامية الرائعة: أبو ذر الغفاري، يقف بمواجهة معاوية بن أبي سفيان داهية بني أمية يقض مضجعه، ويحاسبه على ما يصدر منه، فعندما علم بأن أموال الغنائم دخلت حوزة معاوية وجاءه من يبلغه ذلك:

- يا أبا ذر، ألا تعجب من معاوية، يقول المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس، ويمحو اسم المسلمين؟

فقال أبو ذر:

- أو قد قال ذلك؟

- أجل إنه يقول ذلك في كل خطبة.

- والله لأعتبنَّ عليه.

ونهض أبو ذر من فوره إلى قصر معاوية، وطلب الإذن بالدخول، ولما دخل هشّ له وبشّ، ولكن أبا ذر لم يلتفت إلى كل ذلك، بل اندفع إلى غرضه، وقال:

- يا معاوية، ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟

- يرحمك الله يا أبا ذر.. ألسنا عباد الله؟ والمال ماله.

- فلا تقله.

- سأقول مال المسلمين.

وهمَّ أبو ذر بالانصراف، فقال معاوية:

- يا أبا ذر، مالذي أوجدك علينا؟.

- إن أموال الفيء من حقوق المسلمين، وليس لك أن تختزن منها شيئاً، ولكنك خالفت الرسول وأبا بكر وعمر، وكنزتها لك ولبني أمية.

- يا أبا ذر، إني لا أكنز المال كما تظن، ولكني أدخره لأصرفه في وجوه المصالح العامة، وإني لا أبخل بالمال على المسلمين، فما تركت من سبيل يجب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها..

- إنك لا تريد بعطاياك وجه الله، بل تريد أن يقال إنك جواد، وقد قيل. يا معاوية لقد أغنيت الغني وأفقرت الفقير.

- يا أبا ذر، ارجع عما أنت فيه، فإنك تقود الناس إلى فتنة لا يعلم إلا علام الغيوب مداها.

- والذي نفسي بيده. لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف.

«هذا رجل أشرقت نفسه بنور الإسلام، وعمرت بطمأنينته فلا يخشى في الله لومة لائم، كما علمه صاحبه محمد - صلى الله عليه وسلم - ولو كان ما يواجه معاوية بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية، فهو يقف بمواجهته ولا يرهبه لكونه أميراً أو حاكماً فإن طاعة الله أولى من طاعة الأمير، إذا انحرف عن منهج الإسلام في رأي أبي ذر حتى همس إليه أحد الجالسين بالقرب منه: «إنك تخوض في معاوية، فحاذره، فالتفت أبو ذر إليه وقال: أوصاني خليلي أن أقول الحق ولو كان مراً، وألا أخشى في الله لومة لائم، وإني أدعو دعاءه: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر» [1].

١- الرواية، ص ١٨٠ .

فأبو ذر في مواقفه، وما أكثرها، رجل صلب الرأي قوي الحجة، لن يثنيه عن الحق غضب الأمراء أو مواجهتهم له، فإن الإسلام الذي تربى في كنف تعاليمه السامية، علَّمه ألاّ يخنع أو يذل، فإذا كان الأمر كذلك فما من مصيبة تقع عليه إلا والله مجزيه عنها خيراً، ووقوع البلاء علامة الإيمان، وأبو ذر هو التقي الورع الذي يحفظ من القرآن الكريم ما يجعله يرحب بالبلاء. ﴿.. وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (١).

وفي هذا الموقف العظيم يبدي أبو ذر من أخلاقه العظيمة التي خلقها الإسلام فيه ما يدل على زهده في المناصب وفي الدنيا وفي المال، مما أوغر صدر بعض الحكام ضده، فبعدما رحل أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) إلى الرفيق الأعلى، حمل أبو ذر زوجه وابنته وانطلق بهما إلى الشام، وفي يوم من الأيام جلس في المسجد، وجلس الناس إليه ودار الحديث بينهم، فقال أحدهم:

- يا أبا ذر ألا تتخذ ضيعة كما اتخذ أبو هريرة فقد أصبح والياً على البحرين؟

فقال أبو ذر: وما أصنع بأن أكون أميراً؟ وإنما تكفيني كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز[٢] من قمح...) [٣].

١- سورة البقرة الآيات (١٥٥، ١٥٦، ١٥٧).

٢- القفيز: مكيال كان يكال به قديماً، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جرام.. المعجم الوسيط، مادة «قفز» ص ـ ٢/٧٥١ .

٣ - الرواية، ص ١٥٧ .

فالمسلم المجاهد أبو ذر الغفاري لم يعنه من الدنيا إلا شربة الماء أو اللبن، وفي الأسبوع قفيز من القمح، وكأنه يستلهم تعاليم صاحبه رسول الله - ﷺ - الذي كان يقول[١]: من عاش آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنه حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها».

فأيُّ قناعة بعد هذا؟ حتى عندما يأتيه مال من عند أمير الشام «حبيبه بن مسلمة» ، مع رسولٍ من قِبَله:

- قد بعثني مولاي إليك بثلاث مئة دينار، لتستعين بها على حاجتك.

قال أبو ذر: قم بها إليه. أو ما وجد أحداً أعز بالله عز وجل منا؟ مالنا، ألا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا.

أخذ أبو ذر عطاءه، فخرج مع عبد الله بن الصامت واستصحب معه جارية، واتجه الجميع إلى السوق، فجعلت الجارية تقضي حوائج أبي ذر ينفقها، فقال له عبد الله بن الصامت:

- لو ادخرتها لحاجة بيتك، وللضيف ينزل بك.

- إن خليلي عهد إليّ أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه،حتى يفرغه في سبيل الله)[٢].

فأبو ذر الزاهد المتأدب بأدب الإسلام قبل هدية أمير الشام، ولكنه آثر بها من هو أحوج منه إليها، على الرغم من كونه ليس غنياً، فما دام

---

١ - سنن الترمذي - باب الزهد، ما جاء في الزهادة في الدنيا، المجلد الرابع ص: ٥ رقم الحديث: ٢٤٤٩ (من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا..).

٢- الرواية، ص ١٥٨، ١٥٩.

قد توفر له ما يحفظ الحياة، فما قيمة المال معه؟ فإن إنفاقه على المحتاجين لأمر يمليه عليه ضميره الديني، وأدبه الإسلامي، فإن كنز الأموال لا يجني صاحبه من ورائه إلا العذاب بما كنز يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (١).

فالمال في يد المسلم لا بد أن يزهد فيه ما دام زائداً عن حاجاته الضرورية حتى ينال به رضى الله عز وجل. فأبو ذر الزاهد المسلم يعرف قيمة المال في الحياة وقيمة بذله للمحتاجين، وحجم البلاء الذي يقع لكانزه في الآخرة.

بهذه المعطيات الإسلامية لبناء الإسلام المسلمَ قَدَّم السحار شخصياته في ضوء المعلومات التاريخية المنضبطة، بعيداً عن المغالاة أو المبالغات الممقوتة، فإنه يعلّم النشء تاريخهم الإسلامي ليتعرفوا على هويتهم الإسلامية.

اتجه السحار - من هذا المنطلق الواعي بكل هذه المقومات - إلى سيرة النبي (ﷺ)، وما يلحق بها من سير أصحابه (رضوان الله عليهم أجمعين)، وما يكتنفهم من الجلال والبهاء، (فالتزم الصدق في عرض معلوماته التاريخية وأخبارهم، فعرضها عرضاً أميناً، مُعمِلاً خياله المبدع ليختار ما يفيده في طرح موضوعاته، ويطرح ما لا يفيده، لكن الحقائق التاريخية كانت الركيزة الأساسية التي ينطلق منها بناؤه

١- سورة التوبة، الآيتان ٣٤- ٣٥.

القصصي (أحداثه وشخوصه)، وفق منهج يتّسم بالطرافة والجدة في عرض الأحداث، في أسلوب أدبي مشوق، وتتبُّعه للشخصيات التاريخية التي عاشت هذه الأحداث في عرض شائق، ومثير للعواطف والأحاسيس، بعيداً عن الجفاف الأكاديمي، في تسلسل منطقي فريد، يتحول معه المروي من أشتات الكتب التاريخية إلى وحدة متماسكة البناء، مترابطة الأجزاء على الرغم من اتساعها،وتعدد شخوصها، وكثرة أحداثها، واختلاف البيئات التي تنقلت بين ربوعها)[1].

فالخيال الإبداعي هو الذي أوجد هذه العلاقات بين أشتات الأحداث والشخوص، فلاءم بينها، وأكمل الصورة التي رسمها الكاتب بريشته وكلماته من خلال عملية الاختيار والطرح، أمام الكم الهائل من المتاح من المعلومات المتوفرة لدى الكاتب منها ما يمكن تقديمه من هذه الأحداث أو الشخوص التي يحركها على صفحات الرواية.

والمتأمل لفن الرواية التاريخية عند السحار يجده يتجه نحو المنهج التعليمي للتاريخ في أسلوب أدبي مرهف وجذاب مثير للعواطف ومحفز للأحاسيس، ويشحذ النفوس نحو هدف ديني، هو الاقتداء بهذه النماذج المشرقة، والتي خلدها هذا التاريخ.

تلك كانت ملامح المنهج التعليمي الذي اتخذ من القصة وسيلة لتعليم التاريخ وجذب شباب القراء نحو هذا العلم الجاف. وإن اختلفت طرق التناول ونوايا المبدعين لدى كل من جورجي زيدان الذي احتفى بالمغالطات والتركيز على بؤر التمزق وإثارة الفتن وحلقات الضعف

١ - التيار الإسلامي في قصص السحار، ص ٩٥، بتصرف.

السياسي في تاريخ الأمة الإسلامية، فضلاً عما قام به من تحقير للنماذج المشرقة في التاريخ الإسلامي، والعبث بالقيم والفضائل الإسلامية لتشويه تاريخ الأمة وتنفير الشباب من هذا التراث وبناته من العظماء والعمالقة، أما السحار فكان يحتفي بالمعلومات التاريخية، ويتحرى مصادرها وصدقها، ويسعى لحسر الغبار عن شواهد العصر الإسلامي المطهمة الذين تجسدت من خلالهم القيم الرفيعة والمعاني الإنسانية السامية والبطولات العظيمة..

فجسدت هذه الشخصيات كل هذه القيم والمعاني المشرقة التي ربما غابت أو حوصرت في مجتمعه (واقعه)، فراح يبتغيها في التاريخ الإسلامي، مما يفسح للسحار مكاناً بين كُتَّاب الرواية التاريخية الإسلامية في العصر الحديث الذين ينطلقون في بناء رواياتهم وشخوصهم على أساس من الحقائق التاريخية الناصعة ومن خلال رؤية أو تصور إسلامي خالص.

فرؤية السحار للتاريخ الإسلامي تنطلق من الإجلال والتقديس لهذا الرافد الإبداعي، يتعامل معه بيقين وصدق، فما هذا التاريخ إلا واقع لمن عاشوه من الأنبياء والمجاهدين والقادة، ممن يتمتعون بقدسية هائلة في وجدان الأمة. بخلاف زيدان الذي روج الأكاذيب والأغاليط بغية النيل من هذه القدسية أو التشويش عليها في ذاكرة أبناء الإسلام والاحتفاء بالنصارى (الروم - والقبط) والإعلاء من مكانتهم ونسبة الفضائل والتحضر إليهم، مما يخلق حباً في قلوب المتلقين، وينفرهم في الوقت نفسه من عادات المسلمين وتقاليدهم وأفكارهم.

ثانياً: المنهج التنظيري أو التوظيفي (الإسقاط):

تخطو الرواية التاريخية خلال العملية الإبداعية خطوة فنية متقدمة، بحيث تبدو في عالم الفن أعمق عن سابقاتها، من إبداعات زيدان أو السحار، فيعرض الأديب شخصياته التاريخية أو المستلهمة منه في إطار فني لمعالجة قضية ما، قائمة في الواقع المعاصر أو يرمز بها إلى شخصية معاصرة، ويحاول المبدع من خلال الإسقاط أو التنظير - تنظير الماضي بالحاضر - أن يهيئها لتحمل هموم الأمة، وتصور أزماتها، كي تصنع - ولو على الورق - آمال الأمة وطموحاتها في غدق مشرق فيتعانق الفن والتاريخ لإيجاد نماذج (شخصيات) قادرة على الاستعلاء فوق هذا الواقع واجتيازه وتخطيه لما هو أسمى منه (الغد المأمول)..

من أبرز كُتَّاب هذا التيار ممن عنوا بتقديم الشخصيات الإسلامية في إبداعاتهم الروائي الكبير علي أحمد باكثير[1] الذي يعد (الامتداد المتطور لفن الرواية عند من سبقوه، تعينه على ذلك ثقافته الإنجليزية، وتمكّنه من العربية، وحميته الإسلامية معاً، فيختار من التاريخ ما تميز

---

١ - ولد علي أحمد باكثير في بلدة سورابايا بأندونيسيا في عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٠م لأبوين حضرميين.

من أهم مؤلفاته التي تتجاوز الثلاثين عملاً:

١- الروائية: وا إسلاماه، سيرة شجاع، سلامة القس، دار ابن لقمان، والثائر الأحمر، جلفدان هانم.

٢- المسرحية: هاروت وماروت، جبل الغسيل أوزوريس، أخناتون ونفرتيتي، روميو وجولييت (مترجمة عن شكسبير شعراً) والملحمة الإسلامية.

٣- الدراسات: فن المسرحية من خلال تجاربي الذاتية..

راجع: الاتجاه الإسلامي في أعمال باكثير القصصية والمسرحية - عبد الرحمن صالح العشماوي..

بالحركة الخارجية.. وبإدراك فني ناضج يبرز انعكاس هذه الحركة على النفوس، وعلى تطور الأحداث في وحدة متناسقة إلى حد كبير..[١].

وقد بدأ علي أحمد باكثير بهذا الوعي الإبداعي لمعطيات التاريخ، لا سيما عندما يوظف في أعمال فنية ينطلق نحو الإبداع (الروائي التاريخي) فأنتج «سلامة القس» وهو ما يناسب كاتباً مثله في مرحلة الشباب (يتعلق بالمُثل الإلهية، ويعيش بوجدانه أكثر مما يعيش بعقله)[٢]، ثم لفت نظره بعد ذلك تلك الأحداث العظام التي وقعت في التاريخ الإسلامي، وكان عالمه مسرحاً لها، فلم يجد مندوحة من استلهام هذا التاريخ والاتّكاء على أحداثه وشخوصه، لاسيما، وظروف العالم الإسلامي خاصة في الوطن العربي كانت عند إبداع رواياته ذات تأثير عظيم في توجيه اهتمام الكاتب - باكثير - إلى طبيعة المشكلات التي يتناولها في رواياته، فأصدر في الأربعينات - وتاريخ تلك الفترة يشير إلى الصراع القائم والمحتدم بين المسلمين العرب واليهود في فلسطين السليبة، كما كانت تزدحم ساحة الفكر آنذاك في الوطن العربي بالأيديولوجيات المتصادمة مع الإسلام كالشيوعية والرأسمالية- رواياته «وا إسلاماه» و«الثائر الأحمر» و«سيرة شجاع» فجاءت انعكاسات لهذا الصراع الدائر على مختلف المستويات السياسية والفكرية والاقتصادية، كما أنها تكشف عن خبرته الفائقة بالنفس البشرية وطبائعها، وسبر أغوارها في إطار من التصور المرن الذي يحدد علاقاتها الطبيعية

١- الواقعية في الرواية العربية ص ٢١٠، د/ محمد حسن عبد الله/ سابق.
٢- المرجع نفسه، ص ٢١٠ .

بالكون، ومفرداته الحية من الموجودات بوعي ويقظة تامة، وكأن المؤلف بصنيعه هذا، (يستنهض الهمم الإسلامية أن تتحرك لدفع أخطار التتار الجدد عن فلسطين كما فعل أجدادهم وأسلافهم من قبل، إذ كانت الحمية الإسلامية، والغيرة على دين الله دافعاً قوياً لتجميعهم وتضامنهم أمام الخطر الواحد، ولعل ذلك ما يوحي به نداء الغوث - والإسلاماه - الذي اتخذه الكاتب عنواناً لروايته)[١].

ففي رواية «وا إسلاماه» نرى شخصية البطل الإسلامي «قطز» التي أولاها الكاتب جل اهتمامه وصنعها على عينه حتى بدت (محاطة بهالة نورانية تستمد نورها من حرارة الفكرة الإسلامية عن الجهاد الديني)[٢].

وباكثير يحتال ليرينا البطل الإسلامي خلال أداة فنية هي «الرؤيا» بوصفها أداة فنية، يطرح خلالها الروائي، (رسالة البطل ودوره في التغيير السياسي والاجتماعي الذي يمهد للإعداد العسكري والنصر على التتار)[٣].

هذه الرؤيا التي رآها قطز في منامه ذهب يقصها على شيخه العز ابن عبد السلام فقال:

أرقت البارحة، ونابني ضيق شديد، فقمت فتوضأت، وصليت النفل وأوترت، ودعوت الله، ثم عدت إلى فراشي فغلبتني عيناي، ورأيت كأني ضللت طريقي في برية قفراء فجلست على صخرة أبكي، وبينما أنا

١- اتجاهات الرواية، ص ٣٩.
٢- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص ٩٢.
٣- المرجع نفسه، ص ٩٦.

كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت، يقدمها رجل أبيض جميل الوجه على رأسه جمَّة تضرب في أذنيه، فلما رآني أشار لأصحابه، فوقفوا وترجل عن فرسه، ودنا مني فأنهضني بقوة، وضرب على صدري وقال لي: «قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصر فستملكها وتهزم التتار».

فعجبت من معرفته اسمي، وأردت أن أسأله من هو؟ فما أمهلني أن ركب جواده فانطلق به، فصحت بأعلى صوتي: «من أنت».

فالتفت أحد أصحابه وهم منطلقون في أثره: «ويلك! هذا محمد رسول الله (ﷺ)، وانتبهت من نومي وأنا أحسّ برد أنامله في صدري».

فسكت الشيخ هنيهة متعجباً من الرؤيا، ثم قال: «ما زلت تفكر في الملك وهزم التتار يا قطز حتى أتاك النبي (ﷺ) فبشَّرك بهما، إنها رؤيا عظيمة كما ذكرت، فإن تكن صدقاً، فستملك مصر حقاً وتهزم التتار، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: «من رآني فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي» [1].

فالتصور الإسلامي الذي يحكم الكاتب وإيمانه بفكرة الجهاد الديني جعلاه يطوع الرؤيا بمفهومها الفني لكي تتلاءم مع التصور الإسلامي للرؤيا، فالرؤيا الصالحة دائماً تكون بمثابة البشرى الإلهية بخير لمن رآها خاصة، والبطل الذي رأى هذه الرؤيا شخصية يعدها الراوية لتتبوأ مكاناً عظيماً في تاريخ الأمة الإسلامية، فالرواية تقدم لنا

١- وا إسلاماه، ص -١٠٣- ١٠٤، علي أحمد باكثير، دار مصر للطباعة - د ت القاهرة. والحديث رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الرؤيا، المجلد الخامس، ص: ٢٢ برقم (١٤).

الشخصية من خلال هذه الرؤيا- التي تساعد بدورها على تطوير الحدث الدرامي، ليواكب ما يطرأ على الشخصية من تغير أو تغيير فتتطور لتقنعنا فنياً أيضاً [١] - شخصية إسلامية ذات مقومات إيمانية جعلت الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُحَمِّلها أمانة خلاص الأمة من الخطر الداهم التتار).. والرسول (ﷺ) من رآه فقد رآه حقيقة..

ومن ثم سنرى من مواقف هذا البطل ما يجعله أهلاً لحمل هذه الأمانة التي كانت نفسه دائماً تشتاق لتحقيق تبعاتها..

فعندما سأله الشيخ عن: ماذا يصنع لو تحققت رؤياه هذه، وصار ملكاً على مصر؟: سأرجع إلى رأيك في كل شؤون ملكي، فأقيم الشرع، وأنشر العدل، وأحيي ما أمات الناس من سُنّة الجهاد) [٢].

وما يفعل ذلك قطز - لو ملك مصر - إلا من وعيه بدينه الذي خلقه هذا الخلق العظيم، وكأن الرجل ينظر بعين الواعي بعلل الأمة وأمراضها في شتى شؤون الحياة، ولن تُشفى وتصحّ إلا بإقامة الشرع ونشر العدل وإحياء سنة الجهاد.

وعندما تحققت له هذه الرؤيا النبوية (التي بايعه فيها النبي)، واعتلى سرير الملك في مصر، فلما وجد بعض الغضب من بعض الأمراء، شرح لهم وجهة نظره: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادرٍ فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم، وإذا كان فيكم من يرى نفسه

١- الرواية التاريخية، ص ٩٦/ سابق.

٢ - وا إسلاماه، ص ١٠٥ .

أقوى مني على الاضطلاع بهذا الأمر، فليتقدم إليَّ لأحلّه محلي فيعفيني من هذه التبعة العظيمة، ويتحمل مسؤولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله) [١].

فقطز لم يخلع السلطان المنصور حاكم مصر آنذاك طمعاً في ارتقاء كرسي الملك، أو السلطة في مصر، ولكن ما صُنْعه هذا إلا لتخوفه من انضمام ملك دمشق إلى التتار ومعاونتهم في مباغتة مصر، والقضاء عليهم، وبهذا تكون ضاعت بلاد الإسلام، فلم يكن طامعاً في شيء مما يجول بخواطرهم، ولو كان الأمر كذلك لما أحل نفسه من أمر القيادة إذا وجدوا فيهم من يستطيع تحمل هذه الأعباء فيتحمل أمانة المحافظة على بلاد الإسلام أمام الله (عز وجل)، ولقد صحت وجهة نظره بدليل أن صاحب دمشق فاوض التتار، ليساعدوه على غزو مصر، مما شق على الملك المظفر قطز فدعا السفير الشامي وقال له: أما يستحيي صاحبك أن يستنجد بنا على عدو الإسلام، ثم يستنجد به علينا، إذا لم يكن عنده إسلام فلتكن عنده مروءة!.. أيرضى لنفسه ولدينه أن يتطوع لأعدائه وأعدائنا وأعداء الإسلام، فيعينهم علينا، ويمهد لهم السبيل لغزو بلادنا، والقضاء على ما بقي فيها من دين وإيمان؟ والله لئن لم يكفّ عن خيانته للدين لأسيرن إليه فأحطمه قبل التتار!..» [٢].

فقطز لم يقرع الرجل ولم يلمه إلا لكونه انضم إلى أعدائه وأعداء الإسلام قاطبة، فإن ما يعنيه قبل كل شيء، هو أن تبقى أرض الإسلام

١- الرواية، ص ١٦٩.

٢- الرواية، ص ١٧٠.

مصونة، يتمتع أبناؤها بالحرية التي يكفلها لهم دينهم الحنيف، إذن ففي ضياع هذه البلاد ضياع للدين والإيمان فيها، خاصة العدو يضمر عداوته للدين قبل كل شيء.. فالعقيدة وما تصنعه من معطيات حيوية سامية هي التي تحرك قلب هذا البطل العظيم ووجدانه.

وعندما أرسل هولاكو (قائد التتار) إلى مصر رسلاً يحملون كتاباً بأمر قتالهم لجند مصر، فاستشار السلطان «قطز» الأمراء فيما يجيب التتار به، فأشار معظمهم أن يتقوا شره ويتفقوا معه على مال يؤدونه إليه كل سنة، وأنه لا فائدة من مقاومة التتار، فما كان من الملك «قطز» البطل المسلم إلا (أن يغضب غضباً شديداً، واحمر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه، وجعل يقول بصوت أجش:

«إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [١]. وأنتم تريدون منا أن نعكس، الآية وتقول: «حتى تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون؟ «ثم قام إلى كبير الجماعة فاختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه، وهو يقول: «إن السيف الذي يجبن حامله على القتال لخليق أن يكسر هكذا ويلقى في وجه صاحبه») [٢].

فالبطل الإسلامي قطز لا يخنع ولا يذل للتتار، أو لأمرائه الذين أشاروا عليه بمهادنتهم، كيف ذلك؟ وهو المسلم الذي تربى على القيم والمبادئ السامية، هذا الإسلام الذي صنع الأبطال طيلة القرون التي

---

١ - التوبة من الآية ٢٩.

٢- الرواية، ص١٨٠.

سبقته، كيف يتخلى عن هذا الكم الهائل من المعطيات الروحية التي بثها الإسلام في روحه ونفسه؟ وإلا ما كان أهلاً لرؤيا النبي - ﷺ - والذي دعا له الشيخ ابن عبد السلام بتحققها له، فبأي وجه يقابل هذا الشيخ، وذاك النبي الذي توسم فيه الخير والحب للإسلام، وأين يضع أمانته التي حملها على عاتقه من يومها؟!.

بهذا التدفق والعزم الأكيد جهز السلطان جيشه، وسار إلى التتار وهاجمهم في المعركة الشهيرة في عين جالوت، أبلى خلال المعركة هو وجنوده بلاءً حسناً، أحرزوا به النصر المبين، فما كان من البطل الإسلامي العظيم «قطز» (إلا أن يخرّ ساجداً لربه، شاكراً لربه، شاكراً لما اجتباه من أنعمه، وأطال السجود، ثم رفع رأسه والدموع تتحدر على لحيته حتى سلم من صلاته، فامتطى صهوة جواده، وخطب في جيشه قائلاً: أيها المسلمون! إن لساني يعجز عن شكركم، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى، لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله، فنصر قليلكم على كثير عدوكم، قال تعالى: ﴿**إن تنصروا اللهَ ينصرْكُمْ ويُثبّتْ أقدامَكُم**﴾ قال عز وجل: ﴿**كم مِنْ فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله واللهُ مع الصابرين**﴾.

إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله، إنه ذو القوة المتين، وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر في الساعة التي حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم، يوم الجمعة في هذا الشهر العظيم، شهر رمضان، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التي بها ضربتم، والرماح التي بها طعنتم، والقسي التي

عنها رميتم، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد، وإنما بدأتموه، وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر البلاد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ألا فترحموا على إخوانكم الذين علم الله ما في قلوبهم من الإيمان والخير فاختار لهم الشهادة والجنة، واختار لكم النصر والبقاء، لتعودوا للجهاد في سبيله، وما عند الله خير وأبقى) [١].

بهذا الحديث يعزف البطل سيمفونية رائعة من سيمفونيات العقيدة الإسلامية الباهرة، فإنه يحسم مجموعة من الأمور التي ينبغي للمجاهد المسلم أن يعيها جيداً، فالنصر من عند الله، وما هم إلا أداة حققت هذا النصر، فلا ينبغي أن يغتروا بما أحرزوا، فإن دور الدعاة والمخلصين من أبناء الأمة هناك في مصر لم يقل عن دور من حاربوا، بل ربما يفوق ما صنعته أسلحتهم على مضائها، وأن طريق الجهاد في الإسلام ما يزال ممتداً في جميع الاتجاهات في الحياة، سواء في الحرب حتى تخلص للإسلام جميع دياره، أو في السلم. فالرسول - ﷺ - قال عند رجوعه من إحدى غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، ألا وهو جهاد النفس الإنسانية الأمّارة بالسوء، وأن من قتلوا من إخوانهم لا يقلّون عنهم شجاعة، ولكنه اختيار الله لهم لعلمه بما في قلوبهم من الإيمان والخير، فاختارهم في ضيافته هناك عند ربهم أحياء يرزقون..

فآيات النجاح الإبداعي لباكثير في هذه الرواية لا تعد، ولعل أهمها هي مصداقية هذه الشخصية مع التصور الإسلامي الذي يُعدّ أبرز

١- الرواية، ص ١٩٩- ٢٠٠.

وأغنى شخصية في إبداعه الروائي، حيث استطاع بمقدرته الإبداعية أن يجلي هذه الفكرة - فكرة الجهاد الإسلامي وامتدادها - بثرائها الإيماني الفريد على امتداد الرواية، منذ ولج عالمها البطولي بالرؤيا الصالحة للبطل الإسلامي.

هذه هي البطولة الإسلامية في التصور الإسلامي الذي يعبق بعبير الحب والتوادّ، الذي يحتوي الكون في مجموعه، ينظر علاقاته مع الإنسان والطبيعة والحياة بشمولها.. فكانت شخصية قطز ملتقى هذه المعطيات الإنسانية والإيمانية الزاخرة بالفضائل والقيم السامية، فلم يخن الوطن، أو يغتصب الملك أو يتخلى عنه إلا عندما اصطدمت طموحاته بمقدرات الوطن والدين انحاز إليه منهج الله عز وجل الذي يقيم مثل هذه العلاقات على أسس عقائدية خالصة قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (١)

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (٢).

١- سورة التوبة، الآية ٢٤.

٢- سورة المجادلة، الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢).

خلال هذه الرؤية التي تطرحها الآيات تنطلق شخصية باكثير نحو تصميم علاقات متنوعة من الكون والحياة والناس وجهادها في شتى الجهات، وعلى مختلف الجبهات، فهي شخصية تتميز بردّ فعل تجاه ما يعرض لها من مواقف أو أحداث، تخطئ وتصيب مثل كل البشر، لكن المحصلة النهائية توحي بالأمل، وتترك في المتلقي التأثير المقنع وفق التصور الفكري المقبول..

وكأن الكاتب أراد أن ينشّط ذاكرة الأمة، ويُثري واقعها بهذه النماذج الإنسانية الرائعة في عالم البطولة والجهاد الإسلامي في تاريخ الأمة الإسلامية، ليس في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي كله...

ومن المبدعين الذين واكبوا باكثير في منهجه التنظيري أو الإسقاطي الذي يوظف التاريخ في صناعة نماذج فنية ذات رؤية عميقة تتجاوز الواقع التاريخي، وتتمرد عليه، وتتعداه إلى الحاضر المعيش قضاياه ومشكلاته وشخوصه، لإيقاظ الوعي الديني والقومي ولفت أنظاره إلى هذا الواقع لمعالجته، أو التمرد عليه، ومحاولة الخروج من الشعور بالهزيمة أو السقوط، فتراه يبحث وينقب في التاريخ عن البطولات الشعبية (بطولات الأمة لا الأفراد)، ليقدم النموذج الإسلامي الفريد، القادر على مواجهة مشكلات هذا الواقع، لا سيما، إذا كان الواقع الذي نعيشه واقعاً متهرئاً ومهزوماً، مثل هذا الواقع الذي عايشه - وما زلنا نعيشه - الأديب: نجيب الكيلاني...

خلال هذه الرؤية الإنسانية للتاريخ أبدع نجيب الكيلاني مجموعة من رواياته الخالدة (اليوم الموعود، مواكب الأحرار أو نابليون في الأزهر،

عمر يظهر في القدس، رمضان حبيبي - أرض الأنبياء - رحلة إلى الله، وغيرها من الروايات التي احتفلت بتاريخ مصر والعالم الإسلامي، يلتقط الكيلاني حادثة من حوادث التاريخ الإسلامي. لا سيما، تلك التي اختلطت فيها الهزائم بالانتصار، والآلام بالآمال، يحاول خلال العملية الإبداعية أن يصهر هذا كله في بوتقة واحدة، ليصنع منه عالماً روائياً فريداً، يؤكد على بعث روح النضال الكامنة في أعماق الأمة المسلمة، وريثة الأمجاد التاريخية العظيمة على امتداد تاريخها الحضاري الطويل، مبرزاً الجانب الحقيقي في شخصية هذه الأمة.. الجانب الإيماني الطموح.

من خلال وعي نجيب الكيلاني بفلسفة التاريخ الإسلامي وحركته، يقفز فوق البطولات الفردية مما احتفلت به كتب التاريخ المدونة ليصل إلى نقطة الإشعاع البطولي، ومنبعه في أي معركة أو حادثة من حوادث التاريخ. فإن ما يشغله ليس الأفراد وإنما النشاط الجمعي الذي يصنع هذه القيم ويحسم هذه المواقف، فمن المؤكد أن الجموع الشعبية التي تهب ثائرة في وجه الطاغية أو المستعمر، وتُشكّل الأحداث لا بدّ دبّرها مهنيون وتجار ورؤساء طوائف وعلماء دين) [١]. وغيرهم من فئات المجتمع، يحاول الكيلاني أن يرمز إلى جهاد هذه الطوائف من خلال شخصية لا يهم أن تكون حقيقية أو مخترعة، الأهم أنها ترمز إلى شعب بأكمله إلى مجموعة من القيم الإسلامية التي تحكم هذا الشعب أو الأمة كي تستطيع أن تضطلع بمهام الخلافة في الأرض التي خلقه الله عز وجل من أجل أن يقيمها.

١- راجع تحليل رواية مواكب الأحرار، للأستاذ / محمود حنفي كساب - مجلة المسلم المعاصر، عدد ٣٠، رجب ١٤٠٢هـ/ يونيو ١٩٨٢م.

ولعل الكيلاني يريد القول - من خلال هذه الرواية - لكل المسلمين على اختلاف أوطانهم بأن الحضارة الغربية وسدنتها ما يزالون على عهدهم وإصرارهم على استمرار حربهم الصليبية ضد الإسلام في كل مكان، وها هي ذي تبعث إلينا مع مطلع كل شمس، في يوم جديد، جناحاً جديداً من عساكرها وعتادها كي تستولي على جزء من ديار المسلمين، كي يصبح الجسم الإسلامي معتلاً ومريضاً تتساقط أعضاؤه العضو تلو الآخر، كي يسهل الإجهاز عليه بعد ذلك[١].. من هنا كانت رواية «مواكب الأحرار» ، وكانت شخصية الحاج مصطفى البشتيلي.. المجاهد المسلم عندما هاجمت أرض مصر الإسلامية الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت. فعندما علم بمجيء الحملة الفرنسية على أعتاب القاهرة كان للحاج مصطفى البشتيلي المسلم موقف من هذا الزحف أثار حفيظة زوجته فسألته:

- ألا تأكل يا حاج مصطفى؟

لم يرد عليها، كان احتقان وجهه المستطيل الأسمر، وارتعاشة يديه وبريق عينيه الحائرتين.. كلها تعطي الجواب المؤلم الحزين. مرة أخرى يستشعر الحاج مصطفى البشتيلي مذاق العجز بمرارته وعذابه، فينتابه شقاء ما بعده شقاء، لحظات عصيبة، الموت أهون منها..

وعادت زوجته تقول:

- ولماذا لا ترحل؟

التفت إليها بوجه مكفهر:

١- المرجع نفسه.

- إلى أين يا امرأة؟

- إلى أعماق الريف البعيدة، أو نتجه ناحية برّ الشام، ولدينا من المال والمجوهرات ما يكفينا طول العمر..

لشدة ما ضايقته هذه الكلمات، وحزت في نفسه! الحاج مصطفى يهرب! يا للمهزلة! وتمتم:

هل أصابك مس من الجنون؟

وما جدوى انتظارنا؟ إنه الانتحار بعينه.. غداً يدهمنا هؤلاء الغزاة الكفرة ويجردوننا من كل ما نملك، وقد يقتلوننا.. أنا لاأطيق الحرب، ولم تعد أعصابي تحتمل ذلك العنف كله.. وأولادي كيف نفرط فيهم ونعرضهم للمخاطر؟

ولوح بيده متوعداً، وصرخ:

- كفي عن هذا الهراء.. إذا لاذ الجميع بالفرار، فلمن تكون تلك الديار؟

وكيف نقابل الله وقد تقاعسنا عن الجهاد في سبيله؟ ولسنا وحدنا يا جاهلة [١].

فالحاج البشتيلي يقف من الحملة الفرنسية على وطنه موقف المؤمن الذي يعي تعاليم دينه تماماً، موقفاً ينمُّ عن شجاعته وشهامته وعزته التي تأبى أن تُراق جميعها في مهاوي الجبن أو العجز، إن الإسلام الدين الذي يعتنقه ينأى به عن أن يذل أو يخون، والفرار من وجه

١- مواكب الأحرار، ص ١٨- ١٩، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، ثانية ١٩٨٥، بيروت.

الطوفان وعدم مواجهته وإيثار السلامة ليسا من شيم المسلم، فالمسلم القوي خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف، والحاج مصطفى مسلم قوي يرى حياته في البقاء والمواجهة، أما الفرار وإيثار السلامة فهما الموت بعينه، ولو امتدت أسباب الحياة..

وعندما يصدر نابليون منشوراً يَعدُ فيه أهل مصر ممن يهادنونه ويكونون معه، وأنه أسلم، وهو منهم وليس عدوهم، يقرأ الحاج مصطفى البشتيلي المنشور، إلا أنه يفطن لخداع نابليون وكذبه وتآمره على طوائف الشعب.

(هكذا يكشف الذئب عن نواياه!.. إنه يقسم البلد إلى طوائف، سيحارب طائفة، ويهادن أخرى، أما من يعرف واجبه الوطني، وينفذ ما يمليه عليه ضميره ودينه، فلسوف تحل به لعنة الرجل المؤمن، الموحد بالله المسلم العريق نابليون بونابرت!) [١].

فهذا تعليق من رجل يقظ، فطن لما يجري حوله،لا يستسلم ويهرب من وجه العاصفة كما فعل غيره [٢]، ويؤثر سلامته، وأولاده وأمواله، لاسيما، وهو التاجر الذي تعد الحروب مغنماً لأمثاله، إلا أن الواجب الوطني والضمير الديني يمنعانه من ذلك منعاً، ويثبتّان قدميه على الجهاد.. نِعْمَ الإسلام صانع الرجال..

من منطلق هذا الواجب الوطني والديني نحو بلاده، فإنه يتبرع بماله ليشتري به السلاح والبارود كي يوزعه على رجال المقاومة الشعبية وهو

١- الرواية، ص ٣٥.

٢- الهارب صديقه تاجر البارود أحمد المدبولي الذي فر من وجه الزحف.

وابنه وزوج ابنته معهم مما أثار الدهشة على وجه زوجته التي صرخ فيها محتداً:

(أيتها الجاهلة، لقد استطاع عثمان بن عفان خليفة رسول الله (ﷺ) أن يجهز جيشاً كاملاً من ماله في صدر الإسلام، وما عند الله خير وأبقى، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل، فلم تعودي تفكرين في شيء سوى أولادك وبالمال، والخنوع للحياة الدنيا، حتى اكتنز بدنك، وأصبحت كخنزير كبير! منذ متى كنت تعترضين مشيئتي؟.. لا تنسي ياامرأة أنني هنا الرجل، رب البيت.. أتفهمين؟) [1].

فالبشتيلي يؤمن إيماناً جازماً بأن المال قيمته في كونه يدفع عن الناس البلاء، لا في كنزه، فالدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. أما القيمة العظمى ففي المعاني النبيلة كل خير، وما المال الذي بأيدينا سوى مطية لتحقيق هذه المعاني السامية..لم يمنعه من الإنفاق كونه تاجراً يعي قيمة المال، ولا إلحاح زوجته تدعوه إلى التخاذل والفرار، فجاء موقفه صلباً عنيداً لا يلين.

وعندما يستشهد زوج ابنته في الحرب وتجزع ابنته وزوجه يهمس الحاج:

- لقد مات مصطفى الفرماوي..

وقالت الزوجة:

- لشد ما حزنت عليه، لكن الموت لا يمكن التحايل عليه، انتهى الأمر.

١- الرواية، ص ٤٥.

قال الحاج:

- لم ينته بعد.. موته بداية.. الذي مات فعلاً هو أحمد المدبولي.

- بل يحيا في أمان على أرض بعيدة.

- إن حياته بداية موت أبدي..ومصطفى لن يموت.

وأخذ الحاج يدق الأرض بقبضته ويصرخ بأعلى صوته:

- ومصطفى لن يموت.. لن يموت.. لأنه أنا وأنت وكل الشرفاء المؤمنين.. لأنه هذا الشعب.. إنه فوق كل عوامل الموت والفناء.. أتفهمين؟؟) (١).

نعم لم يمت مصطفى في نظر الحاج البشتيلي، لأنه شهيد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وكأن لسان حاله يقول لزوجه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾(٢).

.. يا امرأة إن زوج ابنتك حي في ذاكرة الأمة، وكذلك عند ربه، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (٣).

١- الرواية، ص ٥٨، ٥٩.

٢- سورة البقرة، الآيتان ١٥٣، ١٥٤.

٣- سورة آل عمران، الآيات ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

فالبشتيلي مؤمن بما عند الله من الفضل والنعمة والخير المعد للشهداء لذا فهو يطمح، إما في الحياة الكريمة فوق أرضه، وإما الموت في سبيل الله فينال عز الشهداء..

فالكيلاني حريص كل الحرص على أن تترجم هذه الشخصية عن المعاني البطولية الإسلامية التي تضرب بأسبابها في عمق العقيدة الثابتة، والإيمان العظيم القادر على تقديم مثل هذه النماذج الإنسانية (المثال البشري) في هذا المقام. فيحرص على أن يكون سلوكها وحديثها إسلامياً لا يخرج عن قيد هذا الإطار ولو لمسافة شعرة واحدة في رأس حليق!!

فالتصور الإسلامي لبناء الشخصية الإسلامية، ووعي الكيلاني بحركة التاريخ الحضارية، في الإسلام جعلاه يضع يده على مناطق الضوء في التاريخ الإسلامي، ليفرز هذه النوعية الرائدة من النماذج البشرية، وهي تجاهد في ثورة عارمة كي ينماز الحق من الباطل.. الإسلام بمعطياته الهائلة من مقومات الحضارة، والصليبية بمعطياتها الهائلة كذلك من الحقد والتعصب الأعمى.

وعندما تنتهي الجولة الأولى من المواجهة بين أهل القاهرة والفرنساوية، ويقتل مجموعة من ضباط الحملة وعساكرها، يُقبض على الحاج مصطفى البشتيلي بتهمة التمرد ويُهان ويجلد بالسياط، إلا أنه يتنهد في أسى ويمضي في الطابور الذليل رافعاً رأسه قدر ما يستطيع، لكن كلمات حلوة تنسكب على قلبه المشتعل، «كل شيء يهون في سبيل

الله، كل شيء يهون من أجل الوطن وحرماته.. الصبر طيب يا فرط الرمان» [١].

فبرغم ما يقاسي من آلام جسدية ونفسية مبرحة إلا أن قلبه ما يزال مترعاً يفيض من الإيمان يكاد يغرق الآلام والعذابات، ويستبدل بها عزيمة وقوة لا يستهان بها، فالجهاد في سبيل الله فريضة إيمانية لا يكتمل الإيمان إلا بها. لا سيما إذا ووجه الإنسان بما ووجهت به هذه الشخصية. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [٢].

فالإسلام الذي كتب عليه القتال لديه من المعطيات الإيمانية ما يثلج صدره، ويثبته على اليقين الرباني، فآلام سياط برتلمي لم تتجاوز ثيابه إلى جسده الطاهر، فإيمانه أقوى من أن تناله سياط هؤلاء الخنازير، فلقد قال لنفسه:

«الأمور أهون مما يتصورون.. ما العمر؟ إنه حيز زمني محدود.. له نهاية،لا يوجد فرق كبير بين أن تكون النهاية اليوم أو غداً.. لقد استطعت أن أؤدي بعض الواجب، ولا شيء يقلقني سوى أن هؤلاء الأوغاد ما زالوا يتحكمون في مصائر العباد، لكني واثق أن ذلك لن يطول أمده...) [٣].

١- الرواية، ص ١٣١ .

فرط الرمان: بائع قارورات الخمر في القاهرة، وهو رومي الأصل، تعاون مع الحملة الفرنسية عندما جاءت إلى مصر وأصبح من رجالاتها.

٢- سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٣- الرواية، ص١٣٢.

وعندما يُودَع مع زملائه من المجاهدين في سجن بارتلمي (بائع قارورات الخمور) الذي اتخذته الحملة الفرنسية عيناً لها على المصريين والمماليك، وأفسحت له مكاناً لائقاً في مناصبها القيادية، ويجزع أحد الرجال ويلقى باللائمة عليه لأنه يُحَرض الرجال، وها هي ذي النتيجة أنهم في غياهب السجن:

فينهره الحاج مصطفى البشتيلي ويصرخ فيه:

- كفى! إنك تتكلم بوحي من ضعفك وهزيمتك.

وصمت الرجل، بينما استطرد البشتيلي:

- ما هكذا يجب أن تناقش الأمور.. إن الباطل كان دائماً أقوى من الحق من حيث العدد والعدة، لكن النصر كان من نصيب أصحاب الحق، لأنهم يدافعون في استماتة عن شيء أصيل يؤمنون به، ولأن الله معهم..هل نسيتم تاريخكم؟؟ كان الرسول وبضعة نفر يواجهون رجالات مكة وكبراءها، وكانوا يقاسون شتى صنوف العذاب.. وبعد سنوات قليلة كانت كلمة التوحيد ونور الهداية ينشران أريجهما العطر فوق الجزيرة العربية والشام وفارس وجزء كبير من بلاد الرومان.. إن الهزيمة المؤقتة التي منينا بها ليس معناها الموت.. إنها حلقة واحدة من سلسلة طويلة من النضال من أجل الحق الصريح، إن من قبلنا كانوا يُنشرون بالمناشير، ويُفْصَل لحمهم من عظامهم، ويتعرضون لامتحانات رهيبة، لكنهم صبروا حتى جاء نصر الله. «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين».

وعاد الحاج مصطفى يقول:

- رددوا معي بصوت خفيض: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين». إنها الكلمات التي نادى بها «ذا النون» [١] ربه، وهو غارق في خضم الكرب العظيم فنجاه الله..

وأخذوا يتمتمون ساعة أو بعض ساعة، لم يتوقفوا برغم الصراخ والسياط القاسية التي تمزق الظهور العارية، وتبدد سكون الليل في القلعة الكبيرة ذات الأسرار الرهيبة) [٢].

فالبشتيلي يستمد هذه القوة الهائلة في تراث أمته المجاهدة على طول الطريق، يستلهم هذه القوة العظيمة التي تمد روحه بزيت الحياة يستمد هذا الفيض البطولي من حياة الرسول (ﷺ) وجهاده في مكة، وما لقيه من مكاره لقاء نشر دعوته، وخلاص البشرية من الجهل والجاهلية. ولو أن الرسول وهن، أو استكان ما تمتعت البشرية بنور الهداية الذي أضاء جنبات الحياة. فأخرج الناس من الظلمات إلى النور. ففي سبيل المبادئ والحرية تهون الأرواح، فإنها مجرد ابتلاءات كي يمتحن الله العزائم، فمن عزم وصبر فله أجره عند ربه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [٣].

١- أورد المؤلف اسم «ذا النون» كما ورد في الآية «وذا النون» إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات..) الآية منصوباً على تقدير محذوف (واذكر)، بما يسمى الإعراب على الحكاية، وموضعه في سياق الجملة الرفع على الفاعلية، و«ذو النون» هو لقب يونس عليه السلام.

٢- الرواية، ص١٤٠.

٣- سورة البقرة، الآيات ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

هيأ الله الأسباب للحاج مصطفى البشتيلي، وخرج من السجن لقاء رشوة كبيرة قدمها ابنه الحسين لبرتلمي كي يفرج عنه، وعندها فرحت به زوجته وبدأت تراوده للإقلاع عن عاداته القديمة، حتى يصفو له الجو كما كان، وعسى ما رآه في السجن أن يغير طريقته في التفكير والتصرف.

(قال الحاج وهو يصر على أسنانه من الغيظ:

- أعرف كل ذلك.. لقد تغيرت فعلاً.. آمنت للمرة المئة أنه لاحياة بدون حرية، ولاضمان في وجود المحتلين، ولاكرامة بغير ثورة) [١].

ويظل هكذا البشتيلي كالشعلة المتقدمة، توزع ضوأها في كل أرجاء القاهرة، لتنير الطريق أمام التائهين والمتمردين، كي يتبينوا الدرب الصحيح، ولا يتساقطوا في الظلام دونما وعي منهم، فالحاج البشتيلي ابن هذه العقيدة الخصبة التي تترعرع فوق تربتها الطيبة نماذج إنسانية عظيمة تنشد الحب والفضيلة والخير والحرية، وتنبذ التعصب والمكر والخداع وكل الشرور..

يظل هكذا، يقاوم ويبذل من المال والنفس طمعاً في رضى الله عز وجل، وطمعاً في حريته التي يتنفسها في سماء وطنه الحبيب، يظل هكذا حتى يصرع غيلة بعد مواجهة ساخنة مع برتلمي، عندما قُبض عليه وسيق للمحاكمة وهو رابط الجأش ثابت العزم حتى يدهمه برتلمي.

- من يظن أن كلباً تافهاً ضئيلاً مثلك يفعل كل هذا؟؟.

١- الرواية، ص ١٩٣ .

قال الحاج مصطفى باسماً:

- تستطيع أن تقول أي كلام، لكنك لا تستطيع الحكم على الرجال لأنك لست برجل..

احتقن وجه برتلمي وصرخ:

- ماذا؟؟

لا تتعجل يا برتلمي إنني أعرف مصيري جيداً.. لكن اعلم أن البشتيلي لم يكن سوى واحد من عامة الناس، وقَتْلُ البشتيلي لن يخمد الثورة التي تشتعل في القلوب ضدكم.. والمعركة مستمرة يا برتلمي حتى النصر.. والله أكبر..

قهقه برتلمي في شماتة وقال:

- انظر إلى النيران من حولك.

- اللعنة على مشعليها.

- لن تحيق اللعنة إلا بك..

وقال برتلمي فجأة ليحطم كبرياء الرجل العنيد.

- لقد بحثنا عن جثتك تحت أنقاض بيتك، فلم نجد إلا امرأتك وابنتك وقد فاحت رائحتهما المنتنة.

- ضغط الحاج مصطفى على أسنانه، وشعر بما يشبه الدوار، وخيِّل إليه أن أكداساً من الصخور تتساقط على رأسه. لم يكن الأمر خيالاً كما توهم البشتيلي، لأن برتلمي أشار إلى رجاله، فانهالوا على رأس

البشتيلي بعصيهم وبالقضبان الحديدية التي في أيديهم حتى سقط بعد أن تحطمت جمجمته تماماً..

وراح البشتيلي في غيبوبته الأبدية:

وتمتم برتلمي بعد أن انتهى كل شيء:

- لم يكن لدينا وقت للتحقيق والمحاكمة.. لقد انتهى البشتيلي، وانتهت بموته ثورة بولاق) [١].

- بهذا الحسم والتحديد، استطاع الكيلاني أن يقدم شخصية بطل مسلم صنعه الإسلام، فأضاء في سماء الكفاح كنجم وهاج، ثم خبا وتساقط تحت ضربات الغدر والخيانة والخسة، إنها شخصية واضحة في انتمائها إلى الإسلام، وكاتب مجيد يعرف طريقه فأبدع في تصويرها أيّما إبداع.

- تلك كانت ملامح المنهج التنظيري، الإسقاطي «في إبداع الرواية التاريخية في أبرز نماذجها، وكتابها في العصر الحديث.

١ - الرواية، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

ثالثاً: منهج التشكيل التراثي:

يحاول المبدع خلال هذا الإطار، أن يبحث عن شكل جديد مستمد من التراث العربي الذي يتمثل في الاعتماد على الرواية، وتعدد المستويات السردية، من نادرة، وعظة، وبيت من الشعر، وحكمة، وأحاديث نبوية، أو آيات قرآنية، أو مقاطع من كتب التاريخ والسير، ليعبر خلالها عن الواقع المتأزّم الذي تحياه الأمة العربية والإسلامية، وتفاعلاته واضطراباته المتلاحقة، لاسيما، إذا كانت (الأشكال الأدبية تعكس في حد ذاتها حركة المجتمع، وتصور مضامينه، وليس عبثاً في فترة غلبة المد الأوروبي - أن تكون الأشكال القصصية في عالمنا هي أشكال أوروبية.. وليس عبثاً أيضاً، أن المجتمع وقد بدأ يكتشف هويته، أخذ في الوقت نفسه يتحسس ما في التراث من أشكال قد تستطيع أن تنبعث من جديد، وأن تتصدى لتيارات العصر)[١]، لا سيما، إذا كانت القضايا التي عُنى بها في تلك الفترة كانت تنبع من تربة المجتمع العربي والإسلامي[٢]، لأن (الشكل لفظ يدل على الطريقة التي تتخذ بها هذه العناصر موضوعها في العمل، كل بالنسبة للآخر، والطريقة التي يؤثر بها كل منهما في الآخر، فهو إذن يشتمل على ضروب من العلاقة، منها تعاقب الحوادث التي تكون عقدة الرواية) [٣].

---

١ - مقالات في النقد الأدبي، ص ٤/٤، د/ عبدالحميد إبراهيم.

٢ - المبدعون الذين بدؤوا البحث عن هذا الشكل التراثي هم الأدباء الذين عاشوا معاناة العرب وصراعاتهم مع إسرائيل ومن ورائها الغرب، فإن إسهامهم في الرفض والتخلي عن الأشكال المستوردة من الغرب، والاتجاه نحو التراث لإحياء الذاكرة وتأصيل الإبداع العربي، مما يعد شكلاً من أشكال المواجهة الفكرية والثقافية، إذ الإبداع آلتهم الأثيرة التي تشبه آلات الحرب للمقاتلين.

٣ - النقد الفني، ص٣٤٠، جيروم سولينتز ت/د/ فؤاد زكريا - سابق.

من هنا، كان لابد للمبدعين من جيل الستينيات أن يخلصوا في البحث عن شكل عربي، يستمدونه من تراثهم الزاخر بالمقومات الهائلة في الفكر والثقافة، لا سيما، إذا كانت الأشكال المتعارف عليها أصبحت لا تساير طبيعة القضايا المعقدة التي أفرزها الواقع الغربي الآن (فالتعبير عن الحاضر مُنبتّاً عن التراث الماضي لا يساير طبيعة المجتمع ذات الجذور الأصيلة)[1]. فكان هذا الوعي أو الإدراك بحالة الإبداع العربي في فترة من فترات التاريخ العربي المأزومة آنئذ بمثابة إرهاص بميلاد شكل إبداعي جديد، يختلف عن تلك الأشكال التعبيرية المتعارف عليها، أو المستوردة من الحضارة العربية، شكل عربي ينبع في مقوماته ومعطياته من التراث أو الحضارة العربية، يعبر عن هموم الأمة ومشكلاتها المعقدة في الواقع الماثل، لاسيما في ضوء المتغيرات السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي اقتحمت على المجتمع العربي والإسلامي عزلته والمعاناة التي عاشها المبدعون خلال خوض مصر والعرب عدة حروب مع المستعمر والمغير الأجنبي أوجدت لديهم الرغبة الأكيدة في تأصيل هوية الإنسان (المبدع - المتلقي)العربي، وهذا التأصيل لا يأتي إلا عن طريق ربط الحاضر بالماضي (البحث في التراث واستلهامه) لا سيما إذا كان هذا الماضي غنياً بمعطيات وتقنيات ذات طابع متميز عن غيره من الحضارات الأخرى التي نعاني من جراء الجري وراءها والإمساك بتلابيبها، ممالا يخفى على كل ذي نظر!!.

وهذا الشكل الإبداعي، الذي يعتمد في بنائه شكل الكتابات التراثية استوحاه الكُتَّاب بقصد فني، بغية خلق شكل روائي عربي إسلامي

١- العناصر التراثية في الرواية العربية، ص٢٣٣.

أصيل، يعتمد على الروافد التراثية، ولا يعنى به الشكل الفني في الروايات التاريخية، بل يعنى به الشكل الذي يستوحيه الكاتب من قالب الكتابات والمؤلفات التاريخية، فيقترب الشكل الفني في الرواية من شكل المؤلفات التاريخية التراثية، من ثم يختلف الشكل التاريخي التراثي في الإبداع الروائي عن الشكل الفني للرواية التاريخية، فالأول يعتمد على استلهام الحدث والنص واللغة والشخصية والقالب التراثي التاريخي، فيكون الشكل الفني في الرواية بمثابة محاكاة لشكل الكتابات التاريخية عند المؤرخين، لكنه يحمل أبعاداً فنية وإيحاءات خاصة، فيضحي استلهام الشكل التاريخي ذاته له وظيفة فنية في بناء الرواية، يعتمد على الملامح المستحدثة في البناء الروائي.. بينما الشكل في الروايات التاريخية شكل تقليدي يعتمد على البداية والعقدة والحل، ولا يعنى الكاتب فيه باستلهام شكل الكتابات التاريخية، بل يعتمد على قص الحوادث التاريخية في شكل روائي تقليدي..

فكتاب هذا اللون من الإبداع، إنما يستلهمون شكلاً تاريخياً لا أحداثاً تاريخية (الأحداث أو الشخصيات راهنة، والقناع تاريخي، بينما التقليديون يستخدمون أحداثاً أو مادة تاريخية في شكل روائي)[١].

والكاتب عندما يستقدم شخصيته الروائية في إطار الشكل التوثيقي التراثي، لا يعنينا كون هذه الشخصية حقيقية أو وهمية، ما يعنينا في المقام الأول (أن يجعل لهذه الشخصية حضوراً واقعياً)[٢] على صفحات روايته التي يختلف في مستواها التوثيقي عن المستوى التاريخي السابق.

١ - العناصر التراثية في الرواية، ص ٢٧٢ بتصرف، وكتاب «القصة القصيرة في الستينات، ص ١٣٦، د/ عبد الحميد إبراهيم - دار المعارف - اقرأ - عدد ٥٤١.

٢ - العناصر التراثية في الرواية، ص ٢٨٦.

فالكاتب عندما يستوحي في روايته الطرق الجوهرية التي تعتمد عليها المؤلفات التاريخية كالحوليات والنداءات والتقارير والمراسلات والمقتطفات يصبح الشكل الفني شكلاً تاريخياً، وعندما يستوحي طرق تحقيق المؤلفات والمخطوطات التراثية، ويوظفها فنياً في الرواية، حينئذ يصبح الشكل شكلاً حقيقياً يسعى الكاتب من خلاله إلى (إضفاء هالة من الماضي وظلاله على الأحداث والأشخاص والأفكار التي تتحرك عبر آفاق الإبداع الروائي، فتمنحه فرصة الخروج من السياق التاريخي للإسقاط على الواقع المعاصر..)[١].

من ثم، تكون الرواية ذات الشكل التراثي قد مرت بمراحل خلال رحلة الإبداع، أو مستويات تطورت خلالها إلى الشكل الماثل في النتاج الإبداعي، لمجموعة من كتاب الرواية - جمال الغيطاني - محمد جبريل أبو المعاطي أبو النجا، وغيرهم من العالم العربي[٢]، يختار كل منهم من هذه المستويات أو الأطر الفنية (الأشكال) التراثية ما يتناسب مع موضوعه، ويستطيع تجليته أو إبراز ملامحه من خلاله، فلكل موضوع الشكل الذي يناسبه. فالشكل والمضمون كل منهما يؤثر في الآخر (الشكل يولد مع مضمونه.. العلاقة جدلية بين الاثنين)[٣]. من ثم لا يستطيع أحدهما النهوض إلى المستوى الفني دون أن يتكاتف مع الآخر.

---

١ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث ص٣٥٦، ٣٦٠.

٢- راجع حوار مع جمال الغيطاني عن استعادته التراثية، حاوره جميل حتمل بمجلة الثقافة العربية، عدد ١٨، لسنة ٢٠، أغسطس ١٩٩٥ الجماهيرية الليبية العظمى.

٣- الحوار نفسه.

شخصية المحتسب:

وإذا كانت الدراسة تعنى بالشخصية الإسلامية في هذا الشق (الإطار التاريخي)، فإنها ستختار من هذه الرواية ما يعنى بإبراز دور هذه الشخصية ذات الحضور التاريخي، إلا أن هذه الرواية التي اتخذت هذا الشكل التراثي إطاراً لبنائها الفني لم تعن بإبراز شخصيات تاريخية بالمفهوم الذي ألفيناه في إطار المنهجين السالفين (التعليمي - التنظيري).. أما هذه الروايات فأبرزت شخصيات إسلامية تقترب من النمط الإنساني، تتجلى إسلاميتها في الإطار الوظيفي الذي يرتبط بالدين، أو يتعالق مع مناصبه الاجتماعية التي أرسى منهجها في المجتمع مثل شخصية «المحتسب» الزيني بركات بن موسى «في رواية» الزيني بركات «للأديب جمال الغيطاني» في القاهرة المملوكية، تلك الوظيفة التي ترتبط بالمجتمع الإسلامي، حيث إنها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك[١]. في ظل متابعة ومحاصرة ومحاسبة تمنعه من الانحراف حتى إذا شابت تصرفاته شائبة عزل من منصبه فوراً، يخوّل الإسلام لشخصية المحتسب القيام بهذه المهمة الاجتماعية الدينية السياسية الاقتصادية من منطلق رؤية الإسلام لهذه الوظيفة التي يضبط قواعدها بإحكام..

من هنا تعد هذه الشخصية التاريخية التي تقترب من النمط الإنساني المتكرر في التاريخ الإسلامي في مختلف مراحله، منذ مجيء

١ - مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٩ (الحسبة).. سابق.

الرسول (ﷺ) [١].. ومن جاء بعده من الخلفاء التابعين.. عولجت هذه الشخصية في إطار الشكل التاريخي، بحث خلاله الغيطاني عن (الأصالة في الجانب المعنوي، لقد رجع إلى التاريخ، فَلَخَّص جوهر تفكيرنا، ورسم عقليتنا التي تتحكم فينا، إذ الفن العظيم نوع من التاريخ، ليس التاريخ السطحي، ولكن التاريخ الجوهر، الجوهر الذي لايمكن أن يُرى إلا من خلال الفن) [٢]، ولما كان الغيطاني في روايته هذه خاصة يستخدم القناع التاريخي للشخصية، وإن كانت الأحداث ماثلة راهنة، وجدنا معالجتها في الإطار التاريخي التراثي، أقرب من معالجتها في الإطار النمطي..

فالحسبة نظام إسلامي اجتماعي سياسي قديم قدم الإسلام - يقوم خلاله المحتسب بمراعاة بعض الأمور التي تمس شؤون المجتمع الإسلامي، في نزاهة وتجرد - تطور بتطور الحضارة الإسلامية، وأصبح له أسسه وقواعده ونظمه التي تحفظ على المجتمع أمنه وتوازنه، ويضرب على أيدي الخارجين على نظم الشريعة الإسلامية في البيع والشراء، وحفظ الأمن، ومعاقبة الخارجين على الأعراف العامة والتقاليد الإسلامية، فتكاد تدخل في جوانب الحياة المتعددة والمختلفة، ما يجعلها تمثل ظاهرة حضارية إسلامية تستمد خطورتها وأهميتها من أهمية العقيدة التي نبتت منها هذه الوظيفة، أو أوجدت هذا النظام ضمن تشريعاتها الإنسانية العظيمة التي تدعو في جوهرها إلى الأمر

---

١ - يذهب بعض الكتاب أن أول من قام بوظيفة المحتسب هو الرسول (ﷺ) حيث يحمل على عاتقه أمانة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- القصة القصيرة في الستينات، ص١٣٣ - وحوار الغيطاني بمجلة الثقافة العربية.

بالمعروف والنهي عن المنكر في كل شؤون الحياة الدينية منها والدنيوية على حد سواء..

والقرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامي، أولى هذه الوظيفة في جوهرها الديني أهمية قصوى، فأفسح لها من نصوصه مكاناً لائقاً ينبئ عن خطرها في المجتمع، وفي الوقت نفسه تؤصل هذه الآيات لمبدأ الحسبة وضرورة التمسك بها بين جماعة المسلمين، فأعلى من شأنهم لإقامة هذا المبدأ في حياتهم. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴿١١٠﴾﴾[١]، وغيرها من الآيات التي تحض على إقامة الحسبة في المجتمع[٢].

والسنة النبوية في حديث جامع للنبي (ﷺ) يلزمنا بإقامة هذه الوظيفة، وأنها واجبة على جماعة المسلمين، (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان..)[٣].

وأمام هذه النصوص الدينية، نذعن أن هذه الوظيفة قائمة على أساس ديني يطمح إلى تقرير فكرة العدالة في المجتمع الإسلامي ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾[٤].

---

١ - سورة آل عمران من الآية ١١٠.

٢ - هناك بعض الآيات التي تشير إلى هذه الوظيفة والتكليف بها: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾» آل عمران ١٠٤، والآية ١١٤ من سورة النساء، ومن سورة التوبة الآيتان ٦٧، ٧١، وسورة المائدة، ٨٧، ٧٩، وسورة النور آية ٢١.

٣- سنن النسائي، كتاب الإيمان / باب تفاضل أهل الإيمان / المجلد الثامن / حديث رقم ٥٠٠٨ .

٤ - سورة المائدة من الآية ٨.

فالقيام بهذه المهمة الدينية في المجتمع يعني في جوهره (امتداد مرحلة الروح، وفاعلية الفكرة واستمرارية شحذها، وتجديدها وعدم انقطاعها.. فقد تضعف الأمة وتسقط، وتصاب وتمرض، ولكنها لن تموت، لأن علاجها تحمله في ذاتها، وعلاجها وخيريتها إنما هما باستمرار القيام على الحق، وتقويم سلوك الأمة، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر كمسؤولية تضامنية مطالب بها كل فرد.. فالدين في غاياته النهائية، هو القيام بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].. والدين - كما يقول الرسول (ﷺ) النصيحة[٢].

وقد وضع الإسلام للمحتسب بعض الملامح أو الأسس التي يمكن أن نصفها بالمنهج النابع من المعطيات الدينية، لاختيار هذه الشخصية التي تمثل نموذجاً يرمز إلى العقيدة التي يمثلها، حددها أهل العلم والفقه منها[٣]:

١- الإيمان.. فالحسبة نصرة للدين، والكافر عدو لهذا الدين، لذا وجب أن يتوفر لديه شرط الإيمان فيمن يقوم بأمر الناس بالمعروف ونهيهم عنه.

٢- أن يكون المحتسب مكلفاً من أولي الأمر حتى يشعر أنه يؤدي واجباً، فيؤديه على أتم وجه ويُحاسب إذا قصّر فيه..

---

١ - فقه تغيير المنكر، ص٣١، بتصرف، مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة - كتاب الأمة، عدد (٤١).

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الإيمان - باب بيان أن الدين النصيحة، المجلد الأول، ص ٢٣٧، رقم ٨٧.

٣- المرجع السابق، ص ١٠٦، بتصرف فيما نقل عن بعض المصادر التي توفرت له.

٣- أن يكون المحتسب قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك حتى يجوز له أن يؤدي هذا العمل، فالعاجز لا تجب عليه حسبة ولا يمكنه القيام بها..

٤- أن يكون المحتسب ذا رأي وصرامة، وأن يأمر عن علم ومعرفة وفقه بالدين وأحكام الشريعة، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، ويعلم كذلك (مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها، ليقتصر على حد الشرع فيه) [١].

ويلحق بصفة العلم أو الفقه بمواقع الحسبة أن يكون المحتسب عارفاً بأصناف المعايش والمهن والحرف بأنواعها المختلفة، وله خبرة في الموازين والمكاييل حتى يتوصل إلى حيل الباعة في الغش والتدليل.

٥- أن يكون المحتسب عفيفاً عن أموال الناس، ممتنعاً عن قبول الهدية من أرباب الحرفة والصناعات، لأن ذلك يعد رشوة نهى عنها الإسلام في قول الرسول -ﷺ (لعنة الله على الراشي والمرتشي...)[٢]، فامتناعه عن قبول الرشوة أصون لعرضه وأقوم لهيبته.. وتقاه وورعه يردعانه - كما يقول الإمام الغزالي - عن مخالفة معلومة. فما كل من عَلِمَ عَمِلَ بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة، وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض)[٣].

فيعمل المحتسب بما يأمر، وينتهي عما ينهى الناس عنه، فيكون قوله موافقاً لفعله حتى لا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم من ناحية،

---

١ - إحياء علوم الدين، جـ ١، ص٣٦١، الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية - أولى - ١٩٨٦ بيروت.

٢ - سنن ابن ماجة - المجلد الثاني / كتاب الأحكام / باب التغليظ في الحيف والرشوة، رقم الحديث ٢٣١٣، ص ٧٧٥.

٣- إحياء علوم الدين، جـ ٢ / ٣٦١، سابق، باب آداب المحتسب.

وتتوفر لدعوته مقومات القبول والتواصل من جهة أخرى، وهذا ما جاء في القرآن الكريم حكاية على لسان سيدنا شعيب عليه السلام حين دعا قومه إلى عبادة الله تعالى، فنهاهم عن نقص المكاييل والموازين والبخس، وعن الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴿٨٨﴾﴾ [١]. فخلقه موافق لدعوته (فحسن الخلق، ليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه، والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه، ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق، والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب، نسي الحسبة وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والإسلام) [٢]. قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[٣].

وبهذه الصفات تصير الحسبة من القربات التي تندفع بها المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر، بل ربما أيضاً صارت الحسبة منكرة، لمجاوزتها حد الشرع كما يقول الإمام الغزالي.

١- سورة هود، الآية ٨٨.

٢- إحياء علوم الدين، جـ ٢ / ٣٦١، سابق.

٣ - سورة لقمان، آية ١٧.

من ثم، وجد الأدباء لاسيما الروائيون منهم في هذه الشخصية التي ترتبط في وظيفتها بالدين الإسلامي ونظمه السياسية [١] ثراء وحيوية من خلال الطرح الفكري لهذا النظام العقدي الذي تنتمي إليه هذه الشخصية «النموذج الإسلامي»، لاسيما إذا كان الكاتب يحيا فكراً أو أيديولوجية غير متجانسة مع هذا النظام الإسلامي العتيد!!..

لفت نظر جمال الغيطاني[٢] العاشق للتراث الذي يستخدمه تقنية فنية إبداعية في إبداعه الروايات «الزيني بركات» تلك الشخصية الحقيقية التي سجلها المؤرخ المصري ابن إياس في مؤلفه التاريخي (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، إلا أن حياة الزيني بركات لا تتجاوز الصفحات الخمس في كتاب التاريخ، أما في رواية الغيطاني فقد أصبحت موضوعاً ضخماً (ومختلفاً تماماً عن الشخصية التاريخية، ممَّا أتاح للرواية ذيوعاً وانتشاراً أثار دهشة كاتبها، حيث ترجمت إلى العديد من اللغات وطبعت ما يقرب من خمس عشرة مرة وبجميع اللغات الحية) [٣].

١- حيث إن نظام الحسبة الآن نظام يمثل إحدى حلقات النظام السياسي في الدولة الإسلامية، من ثم تعبر لفظة «سياسي» هنا عن النظام الشمولي للسياسة فتشمل الاجتماعي والاقتصادي والفكري والثقافي، من حيث هو قائم بمراقبة جميع هذه الأنظمة..

٢- جمال الغيطاني: ولد في التاسع من مايو عام خمس وأربعين وتسعمئة وألف في جهينة إحدى أعمال محافظة سوهاج. من أهم أعماله:

١- الزيني بركات.

٢- هاتف المغيب

٣- التجليات.

٤- حارة الزعفراني.

٥- الزويل.

٦- القاهرة المملوكية وغيرها..

راجع فصول عدد ٣، المجلد ١١، خريف ١٩٩٣، ص ٨٠ وما بعدها.

٣- راجع مجلة الفيصل، عدد ٢٢٨، جمادى الآخرة ١٤١٦، حوار مروان ناصح مع جمال الغيطاني.

obeikandl.com

فهذه الرواية التي اتخذت من هذه الشخصية (المحتسب) في قاهرة المماليك، في بواكير القرن السادس عشر الميلادي، وهي تكاد تسلم مفاتيحها للعثمانيين، عندما كانت تشهد صعود نجم الزيني بركات بن موسى، الصارم غالباً في أداء مهنته العويصة للغاية، وموقف الأخلاق العامة. (كل هذا كان يضعه على ذروة المجتمع المدني بالقاهرة، وأن طبيعة حكمه وسيطرته تغنيان الرواية بمكيدتها الأساسية، وموضوعاتها الأصلية من خلال الصلات التاريخية ذات العلاقة الملحة مع الحاضر الحديث، مابعد الاستقلال وما بعد الثورة)[١].

وأياً كان موضوع الرواية، سواء كان يدور حول هزيمة النظام السياسي في البلاد، من قِبَل قوة خارجية استقوت حديثاً في هاجسه عن طهارة الحياة، عن الأمانة، عن الإصلاح، مَثَّله عن العدل المستمسك والعدل الجزائي) [٢]. أو (تعالج موضوع القهر الإنساني في العالم كله)[٣]، فإنها باستضافة هذه الشخصية (المحتسب) تكون قد ولجت عالماً آخر يتصل بالدين الإسلامي، من منطلق أن هذه الوظيفة من الوظائف الدينية في الإسلام، ولذا سنحاول مناقشة هذه الشخصية في ضوء هذا التصور الديني للمحتسب ووظائفه...

١- مجلة الثقافة الجديدة، عدد ٨٦، نوفمبر ١٩٩٥.

٢- المرجع نفسه.

٣- راجع عدد الفيصل (٢٢٨).

لنر الزيني بركات من خلال وعي الرحالة البندقي (فيا سكونتي جانتي)[١] في إحدى مشاهداته خلال شهر أغسطس ١٥١٧ الموافق رجب ٩٢٢هـ.

«متولي حسبة القاهرة الزيني بركات بن موسى...

إنه صاحب مناصب عديدة أيضاً، ومسؤول عن حفظ الأمن والنظام، لو رآني فسيتذكرني، أعرف أنه لا ينسى وجهاً عابراً رآه مرة واحدة حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام..» [٢].

« الزيني يراه أهل القاهرة يومياً ولو مرة واحدة، تدق الطبلخاناة أمامه، يمشي السُّعاة في ركابه.. الزيني دائم التفتيش على أسعار البضائع، يتعقب أوكار الفساد. مشي الناس في الطرقات له قواعد لابد من مراعاتها، الالتزام بها، أحياناً يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك في بعض الفترات، آخر زيارتي لمصر، رأيت الزيني بركات قوياً عفيفاً، لاأدري كيف سارت به الحال؟.. ثلاث سنوات تغير الإنسان حقاً، رأيت الزيني ينزل بنفسه، يناقش باعة الحلوى والأجبان والبيض يقف وقتاً طويلاً مع الفلاحات بائعات الدجاج والإوز والأرانب والبط، يسعِّر الأصناف بنفسه، يجرِّس المخالفين في المدينة، أعرف رضاء الناس عنه، حبهم له،

١- لعل الكاتب أراد باستضافة الرحالة البندقي (فيا سكونتي جانتي) في روايته أن يوهمنا بأنه ينقل عن مصادر حقيقية، ليقنعنا بصحة نقوله وأخباره عن طريق التوثيق المزعوم، وكأنه يخشى التشكيك فيما يقوله أو يسجله، لا سيما والرواية تتخذ شكلاً وثائقياً. فإذا كان الرحالة هذا شخصية حقيقية كان الأولى التعريف به وبمصدر نقوله حتى نعثر على هذه المشاهدات ونطالعها.. فالأمر إذن محض خيال ليس غير..

٢- الرواية، ص ٩ - ١٠.

رأيت رجالاً كثيرين، بربراً، وهنوداً وإيطاليين وحكاماً من بلاد الغال والحبشة وأقصى شمال الدنيا، لكنني لم أر مثل بريق عينيه، لمعانهما، خلال الحديث تضيقان، كحدقتي قط في سواد ليلي، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية، في ظلامها، عبر صمتها المطبق، لايرى الوجه والملامح إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة، إلى ضلوع الصدر، يكشف المخبأ من الآمال، حقيقة المشاعر.. في ملامحه ذكاء براق، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدني الروح منه، في نفس الوقت تبعث الرهبة..» (١).

وعندما أرسلت إليه جارية رومية صغيرة السن لم تتجاوز الخامسة عشرة تستغيث به من سيدها الذي يكبرها بأربعين سنة.. قام لفوره.. شاور العلماء في الأمر تباحث معهم وأفتى شيخهم بصحة ما ينوي الزيني القيام به.. عندئذ توجه الزيني إلى بيت الرجل (العطار) كبس البيت، هاج الرجل، وصار يزعق غاضباً، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم؟ قبض عليه الزيني، أمر ببطحه أرضاً، كشفوه فقيل: إنهم رُوِّعُوا لمنظره ؟..

وأقسم شيخ الحنفية أنه لم ير شيئاً كهذا في حياته من قبل.. قال الزيني: البنت تصغرك بأربعين سنة أليس حراماً أن تؤذيها.. وبهذا، ضربه خمسين عصا ثم أمره بإعتاقها، وفعلاً، أعتقها الرجل مرغماً لكنه لم ينس ما فعله الزيني به...» (٢).

اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات، أكد جمع منهم صحة ما قام به، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك، ورأى

---

١ - الرواية، ص ١١، ١٢.

٢ - الرواية، ص ١٢، ١٣ .

فريق آخر أنه تدخل في أخص أمور الناس، وأن أحداً من الخلق لا يأمن على بيته، أو عياله بعد الآن، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفي استغاثة البنت بالزيني بركات، إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجري في البيوت والزوايا...، بقي شعور خفي بالرهبة في أعماق الناس، تعجبوا لمهارة المحتسب، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التي تخص البيوت، وهذا ما لم يتفق لغيره قط..» [١].

فالرحالة البندقي، يقدم لنا الزيني بركات المحتسب، وهو يمارس مهام وظيفته على أكمل وجه، من مراقبة الأسواق وتسعير الأسعار، ومقاومة المنكر إلا أنه في الوقت نفسه، يقتحم عليهم خلواتهم، ويهتك الأستار عن أسرارهم، ويضع أنفه الطويل في كل شيء في حياتهم، مما يجعلهم يعيشون واقعاً متهرئاً وساقطاً، تنتفي فيه الخصوصية والأمان.

فالإسلام الذي يستمد الزيتي قوته منه في تنفيذ مهام وظيفته الدينية، لم يتح له فرصة التدخل بهذه الصورة التي تجعله يخرج عن إطار تعاليمه، فالإسلام يحفظ للناس أسرارهم، ويحمي خصوصياتهم، فتدخل الزيني بين هذا الرجل وزوجته، فعل غير مبرر إسلامياً ولا اجتماعيا، فهو ينفذ أحكام القضاء، لم يكن ليصدرها، حتى يفرق بين هذا وذاك، كما أن الإسلام رسم شرائع وقنوات تختص بمثل هذه المشكلات.. فالقاضي هو الذي يصدر هذه الأحكام، وبعد ذلك على المحتسب تنفيذها، إن لم تنفذ، فهو القَيِّم على تنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما ما قام به فلا يخرج عن كونه منكراً ينكره الشرع والعقل.

١- الرواية، ص١٣ - ١٤.

فالغيطاني، من الوهلة الأولى، يقدم شخصية لا تلتزم بمواصفاتها الدينية، وهذا التوصيف، إما يرجع لجهل الغيطاني بالشريعة وأحكامها ومهامها واختصاصاتها، وإما أنه يغمز بهذا النظام القائم على أسس دينية إسلامية تحكمه الشريعة الغراء، فمن ثم يحارب الدين ويحاول إقصاءه عن حياتنا الحاضرة ولا يخفى علينا ما حدث أخيراً تجاه من أقام دعوى حسبة ضد كاتب، فقامت قائمة العلمانيين ولم تقعد حتى نزلت السلطة التنفيذية والقضائية في الدولة على رغبتهم، وأصدرت قانوناً يمنع مثل هذه الجريمة، أقصد إقامة دعوى حسبة ضد المنحرفين.

فالزيني بطل هذا العالم، شخص (قوي يمتلك مهابة أسطورية تقربه من صورة الأب الإله، في الديانات القديمة، الذي يستطيع أن يخلق حوله دائرة مغناطيسية خادعة، تتيحها له قدرات خاصة، تبدأ من المستوى الجسمي، حيث الجسم القوي الصلب، والعينان البراقتان المؤثرتان، وتنتهي بما يبديه من الترفع عن الدنايا، وعلوٍّ فوق الأطماع والأحقاد والتُّرهات، إنها صورة الديكتاتور الذي يتدخل في كل شيء ويعلم كل شيء[1]، حتى أدق أسرار المواطنين، وما يجري في المخادع بين الرجل وامرأته، والعطار وجاريته، مما يجعلهم يخشون الزيني، ويعجبون لأمره مما يحيل القاهرة (المدينة الغالبة) تصبح وكأنها كتلة من العجز والانصياع لهذا الديكتاتور، وهذا ما لمسه الرحالة في ذيل تقريره:

«أرى القاهرة رجلاً معصوب العينين، مطروحاً فوق ظهره ينتظر قدراً خفياً، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت تتقارب رؤوسهم الآن،

١- راجع فصول ٢/٢، مقال الأستاذ محمد بدوي، ص ١٤٠ «مغامرة الشكل».

يتهامسون الآن بما يسمعون من أخبار، النداءات مجهولة، الوقت يمضي ولا يمضي، لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم، ربما يقترب الفجر، غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكاً واحداً يصيح» [١].

فلعل عدم سماعه ديكاً واحداً يصيح، يصلح أن يكون رمزاً صارخاً لحالة العجز والتبلد والانكماش التي انتابت القاهرة، انتابت ساكنيها!! بعد ما أحالها الزيني إلى عالم زاخر بالمؤامرات والدسائس، والعيون الثاقبة التي تنفذ إلى مخادع الناس. تعبث بهم وتفضح أسرارهم!! فصياح الديك رمز لقرب انبلاج الفجر، وهو الموعد الذي ينهض فيه المصلون لأداء تلك الفريضة، وكأنه يخفي وراء هذه العبارة، أو يوحي إلى صمت المآذن أيضاً، فإذا كانت الديكة التي خلقها الله على تلك الصفة، وعلى تتابع صياحها في هذا الوقت دائماً، غير خاضعة أو عابئة بظلم الزيني، أو غيره من الحكام المستبدين، فهي لا تكف عن الصياح في هذا الوقت مهما كانت الأسباب، حتى الكوارث الطبيعية لا تمنعها من ذلك، وعليه يمكن أن نفهم هذه الإشارة الخبيثة إلى أن الظلم الواقع من هذه الشخصية، التي هي في الأصل إسلامية كمَّم الأفواه، وحال بينهم وبين أداء الفرائض، وتعدي ذلك إلى الديكة حرمها من غريزة فيها!!.

وفي وعي المجاور الطالب الأزهري «سعيد الجهيني»: الزيني بركات ذو قدرة فائقة على النفاذ إلى أدق أسرار بيوت القاهرة مما يجعل الناس يضيقون بأفعاله:

---

١ - الرواية، ص ١٧.

- «عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده...» [١].

لذا نرى بعض النقاد يؤكد على أن الرواية رغم الانزواء وراء الملامح المملوكية للقاهرة إلا أنها تصور واقع الحياة في المجتمع المصري عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧م.

وهو نفس الواقع الذي عاشه المجتمع إثر هزيمته في عام ١٥١٧م، فيضفي الكاتب على التراث المملوكي هموماً عصرية واجتماعية خلال مساحة التشابه بين الهزيمتين، المماليك ١٥١٧م، والمصريين في يونيه ١٩٦٧م. وفي كلتيهما كانت الهزيمة طبيعية، للقهر والخوف والانهزامية التي خلفتها هذه الأنظمة السياسية في المجتمع المصري[٢]..

يصنع الغيطاني ما يمكن تسميته «بالفلاش باك» في السينما الارتداد إلى الخلف زمنياً، فيعود بالزيني بركات إلى ٩١٢هـ بعد أن بدأت الرواية بمقتطفات من مشاهدات الرحالة البندقي التي سجلها في إحدى رحلاته للقاهرة في رجب ٩٢٢ هـ.. فتسير الرواية طبقاً لهذا التسلسل الزمني المعكوس (٩٢٢ - ٩١٢هـ) فيتأرجح النص بين الماضي والحاضر والمستقبل، ولهاتين البنيتين وظيفتان مختلفتان، فالأولى منهما لا تهدف إلا إلى تقديم التسلسل الزمني في موضوعيته، أما الثانية فإنها تتضمن علاقة جدلية بين الماضي والحاضر، فإذا بدأنا بالحاضر وعدنا إلى الماضي، فإننا نكون قد ألمحنا ضمناً إلى الماضي، وقد يفسر هذا الحاضر الذي يمثل مشكلاً (موقفاً) مطروحاً في بداية النص

١- الرواية، ص ١٥.

٢- راجع للاستزادة: العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر ص٨٦ وما بعدها.

(قضية الذات الإنسانية داخل المجتمع) [١].. فالمبدع طوال الرواية يتحرك بين هاتين النقطتين الزمنيتين ذهاباً وإياباً، لنسمع زكريا بن راضي بعد علمه بصدور مرسوم شريف بشغل الزيني منصب الحسبة في القاهرة، ليرينا كيف أنه وصل إلى منصبه هذا:

«أكثر من مصدر، أكثر من بصاص، كل بصاص يجهل الآخر، نقلوا إليه أخبار سعي بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة، ذهابه اليومي إلى الأمير «قاني باي» طلوعه إليه، بقاؤه عنده، حديثه إليه، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قاني باي ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد العشاء، ثلاثة آلاف دينار يشتري بها بركات منصب الحسبة..» [٢].

فبركات لم يكن اختياراً شعبياً، أو اختياراً سياسياً، لكونه أهلاً لمنصب الحسبة، لكنه اشتراه بثلاثة آلاف دينار، فهو مع شيوعه في الدولة المملوكية، إلا أنه يخالف الإسلام احتال لارتقائها بالرشوة، فالإسلام ينهى عن هذا السلوك، قال ﷺ: لعن الله الراشي والمرتشي» بعدها يتمنَّع أمام العامة، وينافقهم بأنه زاهد فيها لا يمكنه أن يطيق أعباءها.

والإسلام يرفض هذا الخلق الدنيء في طلب المناصب، ولذا يحمل لنا تاريخ الإسلام عندما طلب أبو ذر الغفاري وهو الصحابي الجليل، وله ما له من السبق والجهاد والمكانة في المجتمع الإسلامي بين الصحابة وعند رسول الله (ﷺ)، ولكن عندما طلب من الرسول ﷺ أن

١- فصول ٢/٢ (المفارقة في القص العربي) سابق.
٢- الرواية، ص ٣٨ .

يتولى ولاية ما أخبره الرسول (ﷺ)[١]: «بأنها أمانة، وأنه ضعيف، وأنها يوم القيامة خزي ومهانة»، وأن دأب الإسلام في هذه المواقف أن يرفض طالب المنصب: قال الرسول (ﷺ): إننا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه[٢]:

فالإسلام ربى أتباعه على العفة والشرف والعزة التي تأبى عليهم التزلُّف وإراقة ماء الوجه، فضلاً عن الرشوة: لتقرأ ما دونه كبير البصاصين زكريا بن راضي في دفتره المجلد بحرير أخضر وأفرده لأخبار الزيني بركات:

الصفحة الأولى:

عاشر من شوال ٩١٢هـ.

على مرأى من الأمراء في حضور جمع عظيم، طلب الزيني بركات بصوت خدشه التأثر، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة، قال بصوت مرتجف: «الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لاأطيق وصايتي على إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيداً عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة لا يقلقني فيها سب إنسان أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه؟ [٣].

١- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، المجلد الرابع، ص ٤٨٩، رقم (١٦)..

٢- المصادر والمجلد والكتاب والباب السابق ص ٤٨٧ رقم (١٤).

٣ - الرواية، ص ٤٠.

فالزيني الذي ساوم على منصب الحسبة واشتراه خلسة بالدنانير، والآن يحتال وينافق الناس ويماري الوالي، ويظهر تعففه عن تقلد هذا المنصب، مع أنه أشد الناس حرصاً على شغله، بل قدم الرشوة لنيل هذا المنصب الشاغر في دولة المماليك حتى انطلت حيله الماكرة هذه على الأمراء والعامة من الناس، وعلماء الدين كذلك، حتى أن رواد الشيخ أبي السعود يرجونه أن يطلب إلى الزيني بركات قبول منصب الحسبة، وأخذوا يرددون[١]:

- «لن يقنعه.. لن يقنعه إلا أنت»..

- «لم نسمع برجل مثله.. ونحن ما نرضى إلا به»..

- «أعرفتموه؟؟»..

- «رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا..».

وأخذت الشائعات تنتشر في ربوع المحروسة أن بركات يعتذر عن منصب الحسبة، وأن بركات جاهر السلطان بظلمه، وأنه يتعفف أن يشارك في هذا الظلم، لئلا ينسب إليه، فأخذ يرتفع رصيد الزيني من الحب في قلوب الناس حتى إنهم يرفضون قبول أي شخص غيره لهذا المنصب. الشيخ القصبي (من رواد الشيخ أبي السعود) يقول:

- «والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزيني فلا خير فينا» [٢]..

١- الرواية، ص ٤١ - ٤٢، مواطن متفرقة.

٢- الرواية، ص ٤٥.

- «لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت.. أنت يا مولانا والبركة فيك» [١]

الواضح من الجمل المنقولة أن وظيفة الحسبة وظيفة خطيرة وجليلة، وأن الزيني بركات بشخصه الضعيف لا يمكنه النهوض بتبعاتها ويخشى الله، فهو على الرغم من خبثه وتظاهره بالتقوى، وشرائه للوظيفة خلسة يضع الزيني بركات أمامنا في صورة المنافق الدجال المتحايل على كسب عواطف الناس بالكذب والادعاء.

استجاب الشيخ أبو السعود الجارحي (العالم الفقيه) واستدعى الزيني، وبعد لقائهما أعلن الزيني على الناس، قبوله منصب الحسبة، ويلتقي الناس في جامع الأزهر ومن فوق منبره ألقى عليهم خطبة وضَّح فيها سيره في منصبه، وبيَّن لهم أن غرضه من كل ذلك إقامة العدل، ورفع الظلم عن المظلومين، وأن داره مفتوحة لصغيرهم قبل كبيرهم، فهاج الناس وأخذوا يهتفون له وبحياته[٢].

لكن زكريا بن راضي كبير البصاصين يخلو لنفسه، ويفكر في أمر هذا الزيني، الذي لا يخفى عليه كذبُه ومكره فتفكر في كتابة رسائل للأمراء يُعرِّفهم بما هو عليه هذا المحتسب:

« ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد، حتى العامة من الناس الذين خدعوا في الزيني، أيَّ خطأ أتاه السلطان عندما ولَّى على أمة الإسلام رجلا لا يُعرَف له أصل ولا فصل، ولم يره أحد يصلي

١- الرواية، ص ٤٦.

٢- انظر وقائع هذا اللقاء في الرواية، ص٥٧، ٥٨.

جماعة في يوم جمعة، يظهر العدل، ولا يعرف أحد ما في عقله، أبطأ في استخراج أموال علي بن أبي الجود[١]، ومن يدري؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد في أذية الخلق)[٢].

وهنا أيضاً يركز الكاتب على الزيني بركات في شخصه وليس في وظيفته، يركز على انحرافه وفساد طويته وخبثه الذي يداريه على أخبث الناس، حتى إن زكريا بن راضي يهم بأن يفضح أمره عند الأمراء ويكشف حقيقته للعامة..

لأن شدة خبثه جعلته يسخر أبا السعود الجارحي العالم الفقيه في أن يطلب من الوالي تولية الزيني بركات محتسباً بعد أن احتشد الناس المُغَرَّر بهم أيضاً، لدى ذلك الفقيه الورع، ويطلبون منه أن يشفع عند الوالي لتولية الزيني الحسبة.

وخلال هذه الرسالة، نرى المحتسب رجلاً عارياً من القيم والفضائل والأصول، لم يعرف له نسب، حتى الصلاة لم يره أحد يصلي.. وهذا ما يتنافى تماماً مع مقومات الوظيفة التي عرضنا لها، ولعلها صفات في الزيني بركات خاصة به، وتؤكد على إقامته أركان الدين، فما باله يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه.

إذاً، إنه النفاق الذي يعفيه تماماً من ارتقاء هذا المنصب، ولعل الكاتب ما زال يؤصل لفكرته أنه من الممكن أن يعتلي هذا المنصب

---

١ - علي بن أبي الجود كان يشغل عدة مناصب في عهد السلطان الغوري منها نظارة الأوقاف، وكالة بيت المال، والوزارة والاستدارية وديوان الخاص، عاش حتى شنق بجرائمه ضد الناس في المحرم سنة ٩٠٩. راجع ابن إياس في بدائعه، مواضع متفرقة.

٢- الرواية، ص ٩١.

الخطير شخص منافق مخادع ليس مؤهلاً للاضطلاع بها فإذن، الوظيفة في نظره قد تقع في يد الدجالين، مما يكون شرهاً أكثر من خيرها، وقد يكون ذلك إيماء منه إلى عدم جدوى هذه الوظيفة، وأن إلغاءها أفضل من بقائها..

وفي يوم يرسل إلى كبير البصاصين كي يعرف منه المكان الذي أخفى فيه علي بن أبي الجود موجوداته، وأخذ في مساومته على أسرار تورط فيها زكريا بن راضي تنبئ عن دناءة الزيني وخسته ووصوليته المقززة. وبعد مباراة كلامية حادة اضطرت الزيني إلى الدخول في غرضه مباشرة وقال: (بدون لف أو دوران، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط أين أخفى علي بن أبي الجود أمواله؟ أسند زكريا جبهته إلى إصبعين من يده اليمين، باختصار كعناوين البطاقات «لا أعرف» زعق طائر غريب الحس في السماء، الليل يشيخ، قام الزيني مرة واحدة على مهل اقترب من زكريا، أنت يا زكريا تعرف تماماً أين موجودات علي بن أبي الجود، وأنت لايخفى عنك شيء، ولو خفي لما خاطرت بسمعتي وأقررتك نائباً للحسبة، أنت تعرف، ليس لأنك شغلت منصب علي بن أبي الجود، إنما لأنك زكريا، أتفهمني لأنك زكريا بن راضي أعتى من تولى منصب كبير بصاصي مصر. لم يرد زكريا، ليقل الزيني ما يريد، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه، الضوء خافت غامض مرعوش يوشك على توهج لكن يداً قوية تحبسه، يوشك على

إلغائه، قال الزيني بركات بن موسى «أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان» [١].

وإذا كان المحتسب الموكل بأمر المحافظة على أرواح الناس كان يعرف بأمر جريمة زكريا، قتله لشعبان صفي السلطان وأخلص خلصائه، الذي أقبره زكريا بن راضي فَلِمَ لم يحاكمه، أو يقدمه للسلطان ليرى فيه رأيه، فهذا التصرف الدنس، يفضح نوايا المحتسب الخبيثة، ويعرّي وصوليته الجشعة، التي جعلته يسخّر مثل هذه الأخطاء لمعاونيه، كي يسخرهم لمصالحه، ويجعلهم أداة طيّعة لمطامعه، ونهمه السلطوي الغائل؟؟.

بعد هذه المفاجأة، التي لم يكن يتوقعها زكريا من الزيني، راجع نفسه ولانت قناته، واتفقا معاً على تصنيف الخلق إلى فئات أربع، يتعاملون هم ورجالهم مع كل فئة على حدة، مؤداها مع الجميع السيطرة المطلقة، والنفاذ إلى أخص الخصوصيات من الأسرار: «فكلما ضاقت سبل العيش قلَّت قيمة الحياة، وذهب عناء الحرص عليها، ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين إلى آخر بطريقة لا يعرفها أحد، وهذا يرهب الباقين» [٢].

تلك كانت سياسة الزيني بركات المحتسب مع عُمَّاله، والعامة، ممن يرعى مصالحهم مالا يحتاج إلى تعليق!!.

ولعل في النداءات المتوالية [٣] التي يوجهها المحتسب (ناظر الحسبة) إلى أهل المحروسة بأسلوبها التقريري المباشر، تحمل من ملامح الصلف

١- الرواية، ص:١٣٣ - وشعبان قتله البصاص زكريا بن راضي وهو صبي الخليفة الأثير عنده.

٢- الرواية، ص ١٣٩.

٣- النداءات في الرواية ص: ٦٨، ٧٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١١٧، ١٢٧، ١٣٠، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٤، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨،

والعجرفة والقهر وديكتاتورية السلطة، ما يفرض على الرواية (إيقاعاً هو أقرب إلى إيقاع قرع الطبول، ويسفر في الوقت نفسه، عن طبيعة الخطاب السلطوي الحاكم الذي يفرض إرادته على الرعية وليس لهم اختيار في رفضها أو قبولها، فتأتيهم على شكل أوامر صارمة عليهم أن يتبعوها دون خيار، والحوار ملغى إلغاء كلياً، حيث إن الصوت هو صوت السلطة، ولا موقف للشعب سوى موقف المستمع المقهور[١].

ولكن الذين اقتنعوا به واتخذهم جسراً للوصول إلى مآربه، من أهل الرأي والإفتاء (المجاور سعيد الجهيني) الطالب الأزهري، والشيخ أبي السعود الجارحي) وإظهاره لبعض السلوكيات والاختفاء وراء (الأكلشيهات) الجاهزة والعبارات الطنانة ما يجعل ارتقاءه للمناصب الدينية، أمراً معقولاً، وله مبرراته، فدائماً يردد «لولا ثقة مولاي وإمامي الشيخ أبو السعود الجارحي لما قبلت.. أحد المريدين أخبرهم بوقوف الزيني خطيباً في أهالي الصعيد القصي، أخبرهم بأن الشيخ أبا السعود يدعو لهم ليلاً ونهاراً، إنه يأتمنه على الأرض والناس، إنه يوصيه بالعدل والخير، وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه.[٢]

ويحكي أحد سكان الوجه القبلي «الدميري» من مدينة منفلوط عما حدث من أخبار «الزيني بركات» في رحلاته، وحكى لهم في حضرة مولانا «أبي السعود» الغدر الذي حدث من ابن عثمان، ونيته في تحركه نحو مصر، لكن جند السلطان وفرسان الإسلام سيتولون أمره قال:

١- فصول: ٢/٢، مقال: المفارقة في القص العربي المعاصر/ سابق.

٢- الرواية، ص٢١٤.

مصر محمية بأولياء الله، وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدي أحمد البدوي وسيدي عبد الرحيم القناوي وسيدي الفولي والقطب إبراهيم الدسوقي وسيدي الرفاعي والأولياء أصحاب الأوتاد، ومولاي صاحب الكرامات النورانية أبو السعود.. أجرى الدمع من عيون الخلق يا مولانا» (١).

إن الكاتب يسخر من أولياء الله الموتى، لأنهم على الحقيقة لايستطيعون دفع عدو مقتحم للديار المصرية، ومعلوم أن مصر تعرضت للغزو الأجنبي عدة مرات دون أن يمنع ذلك وجود الأولياء، لأن النصر أو الهزيمة من عند الله يكتبها حسب حالة الشعب إن كان متقاعساً انهزم، وإن كان مناضلاً مضحياً انتصر بفضل الله. ولكن الكاتب من خلال الزيني بركات المنافق، والذي يريد بكلامه هذا أن يستعطف الناس ويحملهم على الميل إليه وتأييده، صنع الكاتب ذلك ليؤكد على نفاق الزيني ودجله أو ليسخر من عواطف الشعب التي تتجه لتقديس أولياء الله الصالحين..

ثم قال: (إن خزانة السلطان في أمسّ الحاجة إلى دراهم ورجاهم تقبُّل ما سيقوله: جَمْعُ ضرائب عام واحد مقدماً غير السنة التي نحن فيها، ولما كان الحال والدنيا متشحطة مع الناس، ضجوا وأعولوا، فتحدث إليهم بلين الكلام، قال من يملك شيئاً ليبيعه، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك، ولو تركهم لجاؤوا بسيوفهم، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشية، وهذا ليس غريباً، حدث من قبل مرات ومرات، وبين

١ - الرواية ص -٢١٤.

الكلمة والأخرى يذكر وصية مولاه الشيخ أبي السعود له، فصارت الناس يا مولاي.. آه سامحني يا مولاي».

« بعد أن صرف الناس، استبقاني مع أربعة من أهالي البلدة، أخبرنا بأمور عديدة من أموالنا، فعجنبا فيما بعد كيف وصلته، ثم قال: إنه سيفرض على كل منا مبلغاً قدره ألف دينار، قال: لا بد من الدفع، والعجيب يا مولانا، ضاع اللين في حديثه، نَتَرَ في وجوهنا، أظهر القسوة، قال إنه يمهلنا شهراً، ولو تأخرنا سيدعو علينا مولاه.. فتخرب بيوتنا»[1].

فالإسلام كذلك، لم يخصه هو بجمع الضرائب أو تجهيز الجيش، وإن كان ذلك قائماً في الدولة الفاطمية، حيث ضعفت شوكة سلاطينها، وسعى كل مسؤول في الدولة يجمع ويبتكر من الأنظمة التي تؤهله لجمع المال لنفسه يدفع منه رشوة للسلطان يصبح بذلك في مأمن من عقابه، ويضمن دستورية ما يفعل.

إلا أن دولة الإسلام وتشريعاته تدين هذا، وتصنفه ضمن السرقات واللصوصية، فهل كان المحتسب لصاً؟ نعم، في الرواية كان لصاً ومخادعاً ومنافقاً وضالاً، وهكذا أبدعه خيال الكاتب.

ولعل هذا كان بمثابة النبوءة بما ينتظر «الزيني بركات» من مصير. لا سيما، بعدما توفرت كل هذه المعلومات التي لا تقبل الشك، وألقت بمغاليقها عند الشيخ أبي السعود الجارحي، فلنر ما صنعه به الشيخ، والذي عرفنا به خلال التقرير المرفوع إلى الشهاب الأعظم زكريا بن راضي كبير بصاصي السلطنة في الجزء الأخير من هذه الليلة، توجه الزيني بركات بن موسى (استدار الزخيرة ومتولي حسبة الديار

١- الرواية، ص ٢١٤، ٢١٥.

المصرية)، والي القاهرة والمتحدث عن الوجهين القبلي والبحري، إلى كوم الجارح بعد استدعاء الشيخ «أبو السعود الجارحي» العارف بالله، وعندما دخل إليه أجلسه بين يديه، مال الزيني عليه، لكن الشيخ لم يراع هذه، ونتر في وجهه: ياكلب.. لماذا تظلم المسلمين؟ لماذا تنهب أموالهم، وتقول كلاماً تنسبه إليَّ. أبدى الزيني دهشته، حاول الانصراف، لكن الشيخ قام، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج).. أمره بخلع عباءة الزيني عنه، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به، أمر الشيخ، فضرب رأس الزيني بالنعال حتى كاد يهلك، ثم أمر بشك الزيني في الحديد، ثم أرسل إلى الأمير علاّن وأيقظه.. وقال له: اطلع شاور السلطان الأمير طومانباي في أمره، وأعلمه أن هذا الكلب يؤذي المسلمين، وفي الحال طلع الأمير إعلان الداودار الكبير إلى نائب السلطنة وأيقظه وأخبره بما جرى، وقال الأمير طومانباي: ليفعل الشيخ أبو السعود ما يبدو له، وحتى كتابة هذا ما زال الزيني بركات بن موسى محتجزاً عند الشيخ أبو السعود، وقال الشيخ لمريديه: «أبقوا الأمر سراً يوماً أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من أموال الغلابة، ثم نشهره على حمار، وتخلص الدنيا منه وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجري، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزيني لصلاة الفجر كعادته، ومن ناحيتنا بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد في كل فج وخاصة كوم الجارح، ونمى إلى علمنا أن دراويش الشيخ ومريديه، وكافة أرباب الطرق الصوفية والفقراء في بر مصر سيعلنون الخبر ويهيجون الخلق...

عليكم أمان الله تعالى... مقدم بصاصي القاهرة [1]

١- الرواية، ص ٢١٧ - ٢١٨.

فالشيخ أبو السعود ودراويشه، والأمراء المخلصون عرفوا بجرائم الزيني ومخازيه، وما ارتكبه في حق هذه الأمة في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، إلا أنه خان الأمانة واستلب الأموال، واستحل النفوس والأعراض، وهتك الأستار وأفشى الأسرار، في الوقت الذي كان عليه أن يُعنى بأمورهم، وصون أعراضهم وأسرارهم.. فلذا كان لزاماً على الشيخ، أن يقود حركة تطهير وقضاء على هذا الفساد المستشري في جسد الأمة، إلا أن الغيطاني لم يعجبه صنيع الشيخ وحركته، فتأبى مذهبيته الفكرية إلا أن تطل كلما سنحت لها فرصة فتنضح كلماته بأفكاره وهواجسه، على لسان البصاص الأكبر زكريا بن راضي، عندما عَلِمَ بما فعله الشيخ أبو السعود بالزيني بركات فقال: صحيح الشيخ ولي من أولياء الله وفيه بركة.. ولكن ماللمشايخ وأمور السلطنة؟.. ماللنُّسّاك وأمور الدنيا؟.. لو انشغلوا بأمور الدنانير لضلوا سواء السبيل..) [١].

وهكذا، يدافع زكريا المنحرف عن منحرف مثله، ولعله في تصديه باللوم على ما فعله الشيخ، إنما يخشى أن يقع فيما وقع فيه المحتسب، وأن تطوله يد الشيخ فتصنع به مثلما صنعت مع رئيسه المنحرف.

فنظام الحسبة خلال هذا النموذج الإنساني (الزيني بركات)، نظام إن لم يكن جمال الغيطاني من منطلق الرؤية أو الأيديولوجية[٢] الماركسية التي تحكم توجهه وينهل من معينها، ويصدر عنها فتنضح

١- الرواية، ص ٢٣٥.

٢- يقول جمال الغيطاني: اعتنقت الفكر الذي يعبر عن أنبل محاولة إنسانية لتقويم أوضاع مختلفة، وضمان حياة كريمة للبشر، وما زالت قناعاتي الأساسية بالاشتراكية لم تهتز، رغم ما جرى في الاتحاد السوفيتي.. وحاولت خلال هذا كله أن أحقق خصوصيتي الإبداعية.. فصول عدد ٣، المجلد ١١، خريف ١٩٩٢م.

روايته بما يريد أن يقول.. يقول: بأن هذا النظام الذي يستمد وجوده من العقيدة الإسلامية وجوهر تشريعاتها السامية، أصبح في دائرة الاتهام فهو مظهر من مظاهر فساد المجتمع وانحرافه الاجتماعي والسياسي، فالكاتب يؤكد من خلال تقديمه هذا النموذج (الشخصية الإسلامية) المنحرف عن الإطار الذي رسمه الإسلام لهذه الشخصية، ليوحي بفساد هذه الأنظمة التي تنتسب إلى الإسلام.

وعندما تتبعت شخصية الزيني بركات في المصدر التاريخي المعتمد لدى الكاتب، بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس المصري، وجدت الزيني بركات يشغل حيزاً يربو على الخمس عشرة صفحة (المجلد الرابع والخامس) لا خمس صفات كما قال الغيطاني في حواره الذي أجراه على صفحات مجلة الفيصل[١] قدمت لنا هذه الصفحات في كتاب ابن إياس[٢]الزيني بركات شخصية محبوبة من المجتمع والشعب، لأنه كان أحياناً يحارب الغلاء، ويتعقب الفساد[٣].

ولكنه مع ذلك، وكما أنبأت الكتابة عنه كان يقسو في العقاب، ويحدد الأسعار للسلع المطروحة في الأسواق كما يشاء، وفهمنا أن هذا السلوك مضطر إليه، لأن السلطان كان يفرض على بعض الشخصيات إتاوات، ويطلق يد الزيني ليحصلها بطريقته، فكان يعصر كعوب بعضهم في المعاصر كما ورد من أخباره[٤]. مما يدل على أن ذلك العصر كان

١ - عدد ٢٢٨، جمادى الآخرة: ١٤١٦هـ - أجرى الحوار: ناصح مروان.
٢- الجزء الرابع والخامس، مواضع متفرقة.
٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ٢٧٥، المجلد الرابع.
٤- المرجع نفسه، ص ٣٧٧/٤، ٣٨٧، ٣٨٨.

عصر ظلم، وفساد مستشر، شمل كل الحاكمين، من أول السلطان إلى أدناهم، السلطان الذي كان يبيع الوظائف ومنها الحسبة الشريفة كما يسميها ابن إياس، مما يدل على جلال هذه الوظيفة ورفعة قدرها، ولكن الذين يقومون بها هم الفاسدون المفسدون، طمعاً في رضاء السلطان عنهم، وعدم سلبها منهم [١].

ويتضح من كل ذلك، أن وظيفة الحسبة في وجدان الناس، وفي أقلام المؤرخين وظيفة خطيرة الشأن متغلغلة في حياة العامة والشعب، فهو يحدد الأسعار ويجبي الضرائب ويأخذ الأموال، ويعفو ويصفح أحياناً ويعاقب بأشنع العقوبات[٢] وليس هذا من ملامح الوظيفة، ولكنه في طبائع القائمين عليها المسخرين لإرضاء أهواء السلطان ونزواته، فهي - إذن - وظيفة في ذاتها تقوم بخدمات جليلة، في إقامة العدل واستقامة ميزان الحياة في شتى نواحيها، لو أخلص القائمون بها وتجردوا من الهوى والظلم..

فالزيني بركات قدمه ابن إياس على أنه يسعى جهده لكسب رضا السلطان، ولو كان ذلك على حساب الشعب، ونحن نقول: إن الزمن كله الذي عاش فيه الزيني بركات كان عصراً فاسداً كله، وهو أحد وسائل هذا الفساد، لأنه لو كان مستقيماً في ذاته، لقام بهذه الوظيفة الخطيرة على خير وجه، وسار فيها سيرة ترضي الله ورسوله، ولكنه يُحسب على فساد هذا العصر فكان منه ما كان..

١- بدائع الزهور. المجلد الخامس، ص ٢٧، وقائع سلب الحسبة من الزيني وبيعها للأمير ماماي.. وكذا المجلد الرابع ص: ١٤٤ وقائع خلع الزيني عن الحسبة وتعيين على الجمالي يوسف رمضان سنة ٩١٤هـ.

٢ - المرجع نفسه، ٤/٢٨٥، ٣٧٧ .

والكاتب حين التقط هذه الشخصية لم يقف عند اللقطات الوجيزة التي قدمها ابن إياس عنه، وإنما غالى وبالغ فيما رسمه من ملامح هذه الشخصية، وله الحق فنياً، وخاصة إذا فهمنا أنه يريد تشويه هذه الشخصية، لكي يلطّخ الوظيفة نفسها، ويجعل الناس يقتنعون بأن وجود وظيفة المحتسب تضر ولا تنفع، وأصبح بذلك توجه الكاتب لا إلى الزيني بركات، ولكن إلى الوظيفة - فكرة العمل - التي يمثلها الزيني بركات، وإلا كانت له الحرية، في أن يبحث عن شخص آخر تولى الحسبة في التاريخ كان مثالاً للنزاهة والأمانة والتفاني في إقامة الحق والعدل.. كما فعل كاتب مسلسلة «القضاء في الإسلام» التي يقدمها التلفزيون المصري في شهر رمضان منذ أعوام، حيث إنه عثر على نماذج مشرفة ومضيئة للقاضي العادل القوي الذي يقف في صلابة منقطعة النظير، ويعارض الحاكمين الطغاة، ولا يقر بظلمهم، بل يسعى جاهداً إلى أخذ الحق منهم، مع أننا لو بحثنا في التاريخ الطويل عن قضاة منحرفين ويمالئون السلطة لوجدنا، وكذلك لو أن الكاتب يريد إقرار وظيفة المحتسب، لوجد غير الزيني بركات ممن ينصفون العدل، ويشرفون هذه الوظيفة، ويعطونها حقها، ممن تمتعوا بسمعة طيبة في مصر فتذكر لنا المراجع: أنه في سنة ست وتسعين وسبعمائة توفي تاج الدين محمد بن محمد المليحي المعروف بصائم الدهر.. وكان ساكناً قليل الكلام جميل السيرة...[1]، والقاضي بدر الدين العيني عندما تولى الحسبة انحط سعر الغلال، ودخل مراكب من الصعيد موسوقة من

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي: ٣٤٧/٦ - مكتبة القدس - د ت: القاهرة.

الغلال من قمح وغيره، وكان العيني يعزّر السوقة بذهاب البضائع.. جمع العيني بين القاضي والحسبة ونظر الأحباس في وقت واحد[١].

ومحتسب القاهرة «منكلى بغا الظاهر» والمحتسب «يشبك الجمالي» الذي تولى الحسبة سنة: ٨٧٣ هـ /١٤٦٨م. (الذي كان في وظيفته نموذجاً يحتذى حذوه) [٢]. حتى إن (السلطان طومانباي طلب من الأمراء وحلّفهم على أن يجروا الأمور ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالي لما كان محتسباً) [٣].

فهذا التحامل الذي بدا من الكاتب، إنما كان مُنصباً على وظيفة الحسبة، أكثر مما كان منصباً على الزيني بركات، وقد وجد في هذه الشخصية بغيته، وكأنه فرح جذلان إذ عثر على شخصية منحرفة يؤكد من خلالها ما يريد إقراره، وتمكينه في أذهان العامة من أن وظيفة الحسبة وظيفة فاسدة وينبغي التخلص منها.. ومن أجل ذلك لم يجد نقيصة إلا ألحقها بالزيني بركات..

وإن زعم الكاتب أنه يريد من وراء ذلك الإسقاط على العصر الذي يعيشه، وما انتاب الدولة من تهالك وانهيار في الأخلاق والتصرفات إثر هزيمة يونية ١٩٦٧م. هذا الزعم لا يجوز التشدق به، لأن الهزيمة وقعت بتخاذل الحاكمين الرؤوس الكبرى في الحكم. فلو كان يقصدهم لكان ركّز على فساد السلطان في أيام الزيني بركات خاصة، وأن ما طالعناه

---

١ - بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٢٦/٢، ١٤١.

٢- الحسبة في مصر الإسلامية ص: ٩٣. سابق.

٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٥٧/٣ ابن إياس.

في بدائع الزهور يشهد بأن السلطان أكثر فساداً من الجميع، وأن فساد الزيني بركات من صنعة السلطان نفسه، لكن الكاتب دار وجعل محور الرواية والأحداث من الزيني بركات، فكأن الفساد صنعه الزيني وليس السلطان، حتى اللقطات القليلة التي أطلَّ فيها السلطان، جعله شخصية متمثلة للزيني وتابعة له، يحرص على رضائه وتقريبه منه، في حين أن الحقيقة تقول عكس ذلك، فالزيني هو الذي يأتمر بأمر السلطان..

فعملية الإسقاط التي يزعمها، تحتّم عليه أن يقدم العصر كله، بكل طوائفه في صورة تنبئ عن استشراء الفساد، واتساع رقعته فيما عدا الشعب المقهور الذي مارس فيه هؤلاء الحاكمون ظلمهم بكل شراسة.

هنا يكون الإسقاط مقبولاً، أما أنه يركز على المحتسب، ويجعله أس الفساد كله. فهذا يجعلنا نتهم بأنه يقصد وظيفة المحتسب في ذاتها، مما فتح الباب بعد ذلك لانبعاث هجمة شرسة لأصوات محتجة ورافضة في صراحة لوظيفة المحتسب، يقول الدكتور عبد العظيم رمضان[1]: إن التعديلات التي جرت على مشروع قانون الحسبة تعد جيدة في حدود المشروع الذي قام.. فالمشروع الذي قدم كان مشروعاً سيئاً للغاية، بل يكاد يكون بمثابة تقنين للحسبة، وليس تنظيماً أو وضع ضوابط!!.. ولكن كان يجب أن يكون المشروع بإلغاء مسألة الحسبة، لأنها في حقيقة الأمر مشكلة ليست من الإسلام، ولكنها تستند إلى التاريخ الإسلامي.. وما يقال غير ذلك يعتبر تضليلاً..

١- راجع: «أخبار اليوم» القاهرية، عدد: (٢٦٧٤) الصادر في ١٩٩٦/٢/٣م.

وأفتى الأستاذ نجيب محفوظ الأديب العالمي!! يقول[١] ماحدث تنظيم للموضوع، وهو بغير جدال خير من الحال السابق.. وكنت قد سمعت - والله أعلم - أن الحسبة ليست من الدين، وإنما اجتهاد من الفقهاء، فلو كان الأمر كذلك فإلغاؤه أفضل.

وأفتى كذلك آخرون بأن الإسلام لم يعرف الحسبة، ولم يكن لها أصل في القرآن ولا في السنة[٢] وأنها لم تكن موجودة في عصور الزهو الإسلامي، بل كانت سمة من السمات المميزة لعصور التقهقر والانحطاط الإسلامي[٣].

فإذا كان جمال الغيطاني استطاع من خلال موهبته أن يحقق نجاحاً على المستوى الفني في خلق رمز روائي فائق الإبداع في تجسيد القهر الإنساني، وديكتاتورية الحاكم الفرد، ونجح في تجسيد الظلم الواقع على الرعية من فرط فساد الحكام، إلا أنه انزلق في مهاوٍ فكرية باستطاعتها تحطيم هذا النجاح، إذ كشف عامدا عن رؤية مدخولة وإذعان فكري لمذهبية أو أيديولوجية منحرفة، قدَّم من خلالها تصوره لهذا النمط الإنساني، النموذج الحضاري الإسلامي الذي يرمز إلى وظيفة من وظائف الإسلام الحضارية في روايته فحطمه تحطيماً، وحبسه في دائرة الظلام التي رسم إطارها في عالمه الروائي.. وهذا لايعني أن الإسلام على غرار الشخصيات التي تمثله، ففساد الشخصية (الزيني.. لا يعني بالقياس فساد نظام الحسبة).

١- نفس المرجع وعدده.

٢ - راجع: مجلة «المصور» القاهرية عدد (٣٧٢٠) الصادر في ١٩٩٦/١/٢٦م. ملف خاص تحت عنوان «فوضى الحسبة» والكلام للدكتور/ أحمد صبحي منصور.

٣- نفس المصدر، والكلام للكاتب التلفزيوني «محفوظ عبد الرحمن».

هذه كانت أهم المراحل التي مرت بها الرواية التاريخية، فنياً وإبداعياً، ومن ثم كذلك الشخصية التاريخية.. استطاع كل جيل من الكتّاب الروائيين أن يعبر ويوظف ما أتيح له من معطيات التعبير أو الفن، لإبراز ما يقلقه من أفكار، أو ما يعانيه من هموم قومية أو دينية أو سياسية أو فكرية، لتقديم معنى أو رمز أو رؤية، يعنى بها من خلال إبداعاته الأدبية، خاصة في إطار نوع فني مراوغ كالرواية الفنية.

تلك كانت أهم النماذج المنتقاة في الإبداع الروائي للكُتَّاب الذين يمثلون حركة الإبداع في مصر، تتباين أفكارهم ورؤاهم في التعبير عن الشخصية الإسلامية في إطارها النمطي المستمد من الواقع المعيش، أو التاريخ الذي يمثل ذاكرة الأمة، وتراثها المقدس على امتداد التاريخ الإسلامي. فاستعرضنا نماذج لهؤلاء وهؤلاء، لعلنا استطعنا أن نقدم هذه الرؤى المتباينة، لكننا حاولنا جهدنا في محاكمة كل نموذج على حدة، في إطار إبداعي، يمثل توجهه الفني ورؤيته الفكرية..

obeikandl.com

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم (جلّ من أنزله).

ثانياً: السنة النبوية المطهرة: (مصادر مختلفة).

ثالثاً: الكتب والدراسات الأدبية والإسلامية:

١- آفاق الأدب الإسلامي - نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ط/ أولى ١٩٨٥م. بيروت.

٢- اتجاهات الرواية المصرية منذ الحرب العالمية الثانية إلى سنة ١٩٦٧م. مكتبة الشباب ١٩٨٧م. القاهرة.

٣- الاتجاه الإسلامي في أدب طه حسين - رمضان الجازية - طبعة مصورة كمبيوتر، ١٩٨٥م. مصر.

٤- الاتجاه الإسلامي في أعمال باكثير القصصية والمسرحية - عبد الرحمن صالح العشماوي، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود - مع المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) الرياض ١٤١٠ هـ.

٥- الاتجاه نحو الدين وعلاقته ببعض سمات الشخصية، د/ نزار مهدي الطائي - حوليات كلية الآداب - عدد: (١٢) مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت.

٦- الأحكام السلطانية للماوردي - دار الفكر - ١٤٠٤هـ - مصر.

٧- أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، د/ السيد أحمد فرح - دار الوفاء، أولى - المنصورة.

obeikandl.com

٩- الأرض (رواية) عبد الرحمن الشرقاوي - دار غريب للطباعة - د ت القاهرة.

١٠- أرمانوسة المصرية (رواية) جورجي زيدان - دار الهلال - ١٩٨٣م. مصر.

١١- الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ - د/ محمد حسن عبد الله - دار مصر للطباعة - د ت، القاهرة.

١٢- الإنسان بين المادية والإسلام / محمد قطب - دار الشروق - تاسعة - ١٩٨٨م. القاهرة.

١٣- الأيام (رواية) د/ طه حسين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م. مصر.

١٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور/ محمد بن أحمد بن إياس/ تحقيق/ محمد مصطفى/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م. القاهرة.

١٥- بناء الشخصية في القصة القرآنية، د/ مصطفى عليان - دار البشير - أولى /١٩٩٢/ عمان.

١٦- بلال مؤذن الرسول (رواية) عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة - د ت - مصر.

١٧- الترجمة الذاتية في الأدب العربي - د/ يحيى إبراهيم عبد الدايم - دار النهضة العربية - د ت - بيروت.

obeikandl.com

١٨- التصوير الفني في القرآن سيد قطب - دار الشروق - عاشرة - ١٩٨٨م. القاهرة.

١٩- تطور الرواية العربية الحديثة - د/ عبد المحسن طه بدر - دار المعارف ١٩٦٣م. مصر.

٢٠- التفسير الإسلامي للتاريخ د/ عماد الدين خليل - دار العلم للملايين / ثانية - د ت بيروت.

٢١- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير - دار إحياء الكتب العربية د ت - مصر.

٢٢- التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار د. صفوت يوسف زيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥م. القاهرة.

٢٣ - جورجي زيدان في الميزان - شوقي أبو خليل - دار الفكر - نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة ١٩٨٢م. دمشق.

٢٤- جورجي زيدان (نقاد العرب)، د/ أحمد حسين الطماوي/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة.

٢٥- حاجة الإنسان إلى ظهور الإسلام، د/ أحمد عبد الرحيم السايح - الدار المصرية اللبنانية / أولى ١٩٩١م. القاهرة.

٢٦- الحسبة في مصر الإسلامية - سهام مصطفى أبو زيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م. القاهرة.

٢٧- حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د/ عماد الدين خليل، (كتاب الأمة) عدد (٤) رئاسة المحاكم الشرعية - وزارة الأوقاف، قطر.

٢٨- حمامة سلام (رواية)، نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ثالثة ١٩٨٤م. بيروت.

٢٩- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، د/ عبد المجيد النجار. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي - ثانية - ١٩٩٣م. فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

٣٠- دراسات في القصة والمسرح/ محمود تيمور، مكتبة الأداب، د ت - القاهرة.

٣١- دراسات في نقد الرواية، د/ طه وادي - الهيئة المصرية العامة للكتاب (دراسات أدبية) ١٩٨٩م. القاهرة.

٣٢- دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع، د/ مقداد يالجن - دار الشروق - أولى - ١٩٨٣م. القاهرة.

٣٣- أبو ذر الغفاري (رواية) عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة - د ت - مصر.

٣٤- رأس الشيطان (رواية) نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ١٩٨٥م. بيروت.

٣٥- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، د/ عماد الدين خليل / كتاب الأمة، عدد (٤٥)، قطر.

٣٦- رحلتي مع الأدب الإسلامي - نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - أولى، ١٩٨٥م. بيروت.

obeikandl.com

٣٧- الروائي والأرض، د/ عبد المحسن طه بدر/ دار المعارف/ ثالثة، ١٩٨٣م. مصر.

٣٨- الروائيون الثلاثة، يوسف الشاروني - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م. القاهرة.

٣٩- الريف في الرواية العربية، د/ محمد حسن عبد الله - عالم المعرفة - عدد (١٤٣)/ الكويت.

٤٠- زقاق المدق - (رواية) نجيب محفوظ / دار مصر للطباعة، د ت - القاهرة.

٤١- الزيني بركات (رواية) جمال الغيطاني - المجلد الثالث (الأعمال الكاملة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٣م). القاهرة.

٤٢- السحار - رحلة إلى السيرة النبوية - محمد جبريل - دار مصر للطباعة - د ت القاهرة.

٤٣- السحار مفكراً وأديباً وسينمائياً/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م. القاهرة.

٤٤- الشخصية في سوائها وانحرافها، د/ مصطفى فهمي - المكتبة الثقافية، عدد (١٦٣) - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر.

٤٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي، مكتبة القدس - د ت - القاهرة - طبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر بدون تاريخ، بيروت.

٤٦- صورة المرأة في الرواية المعاصرة، د/ طه وادي/ مركز الشرق الأوسط / د ت/ مصر.

٤٧- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٧٧م. بيروت.

٤٨- عمالة الشمال (رواية) نجيب الكيلاني - دار النفائس - ثانية، ١٩٨٤م، بيروت.

٤٩- العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر «دراسة نقدية» ١٩١٤: ١٩٨٦م، د/ مراد عبد الرحمن مبروك، دار المعارف - أولى - ١٩٩١م. القاهرة.

٥٠- فقه تغيير المنكر، د/ توفيق محمد سعد - كتاب الأمة، عدد (٤١) قطر.

٥١- فن الأدب - توفيق الحكيم - دار الكتاب اللبناني - ثانية، ١٩٧٣م. بيروت.

٥٢- فن القصص - محمود تيمور - دار الهلال - ثانية ١٩٤٨. القاهرة.

٥٣- فنون الأدب - تشارلتن - ت: د/ زكي نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة - د ت، مصر.

٥٤- في التاريخ فكرة ومنهاج. سيد قطب - دار الشروق - سابعة - ١٩٨٧م.

٥٥- في الغزو الفكري د/ أحمد عبد الرحيم السايح - كتاب الأمة، عدد (٣٨) قطر.

obeikandl.com

٥٦- في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية، د/ محمد أحمد العزب. المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٨٣م. القاهرة.

٥٧- في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب - دار الشروق - السابعة عشرة - ١٩٩٢، بمصر.

٥٨- في النفس والمجتمع - محمد قطب - دار الشروق - الحادية عشرة، ١٩٩٣م، مصر.

٥٩- في النقد الإسلامي المعاصر، د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة - ثالثة - ١٩٨٤م. بيروت.

٦٠- قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر: سمير خفاجي - مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م. القاهرة.

٦١- القرآن وعلم النفس - د/ محمد عثمان نجاتي - دار الشروق - رابعة، ١٩٨٩م. مصر.

٦٢- القصة في الأدب العربي الحديث - د/ محمد يوسف نجم - طبعة المكتبة الأهلية ثانية ١٩٦٢م. بيروت، وطبعة دار الثقافة ثالثة ١٩٦٦م بيروت.

٦٣- القصة القصيرة في الستينات د/ عبد الحميد إبراهيم - كتاب اقرأ - عدد (٥٤١) دار المعارف بمصر.

٦٤- قضية التصوف - د/ عبد الحليم محمود - دار المعارف - ثالثة - د ت مصر.

٦٥- اللص والكلاب (رواية) نجيب محفوظ - دار مصر للطباعة - د ت - القاهرة.

٦٦- مجموع فتاوى ابن تيمية - مكتبة ابن تيمية - نسخة مصورة - د ت - مصر.

٦٧- محاولات جديدة في النقد الإسلامي - د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة، ط/ أولى، ١٩٨١م. بيروت.

٦٨- مدخل إلى الأدب الإسلامي، نجيب الكيلاني، كتاب الأمة، عدد (١٤) قطر.

٦٩- المستقبل للإسلام - د/ أحمد علي الإمام، كتاب الأمة، عدد (٤٦) قطر.

٧٠- مجلة الوعي الإسلامي - الكويت، عدد ٢٥٩، رجب ١٤٠٦هـ.

٧١- معالم في الطريق - سيد قطب - دار الشروق - سادسة عشرة، ١٩٩٣م. القاهرة.

٧٢- المعتقدات الدينية - أشرف على تحريره جفي بارندرت. د/ عبد الفتاح إمام - عالم المعرفة، عدد ١٧٣، الكويت.

٧٣- معركة الإسلام والرأسمالية - سيد قطب - دار الشروق، الحادية عشرة، ١٩٩٠م. مصر.

٧٤- مفهوم العبادة في الإسلام - أحمد ديدات، تحقيق: علي عثمان - المختار الإسلامي - د ت - القاهرة.

obeikandl.com

٧٥- المقدمة - ابن خلدون - دار الجيل - بدون تاريخ - بيروت.

٧٦- مقدمة رواية طلائع الفجر لنجيب الكيلاني (دراسة نقدية) للدكتور نجيب الكيلاني.

٧٧- مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - دار الشروق، رابعة، ١٩٩٣م. القاهرة.

٧٨- مقومات الشخصية المسلمة (جزآن) د/ ماجد عرسان الكيلاني/ كتاب الأمة/ : العدان (٢٩، ٣٠) قطر.

٧٩- من توجيهات الإسلام - الشيخ محمود شلتوت - دار الشروق - ثانية ١٩٨٧م. مصر.

٨٠- المنتمي - د/ غالي شكري - دار المعارف / مكتبة الدراسات الأدبية / عدد (٥١) ثانية، ١٩٦٩م. مصر.

٨١- منهج التربية الإسلامية - محمد قطب - دار الشروق - الثالثة عشرة - ١٩٩٢م. القاهرة.

٨٢- منهج الفن الإسلامي - محمد قطب - دار الشروق - سادسة، ١٩٨٣م. القاهرة.

٨٣- مواكب الأحرار (رواية) نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ثانية ١٩٨٥م. بيروت.

٨٤- نجيب محفوظ: الرؤية والأداء - د/ عبد المحسن طه بدر - دار الثقافة، ١٩٧٨م. القاهرة - وطبعة دار المعارف - مصر.

obeikandl.com

٨٥- نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث - مجموعة كتاب تقديم - د/ إنجيل بطرس - الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٨م. القاهرة.

٨٦- النقد الأدبي الحديث - د/ محمد غنيمي هلال - دار نهضة مصر - د ت - القاهرة.

٨٧- النقد الأدبي الحديث في تطوير الفن القصصي - د/ محمد حامد الحضيري - منشورات رابطة الأدب العربي الحديث - القاهرة.

٨٨- النقد الفني: دراسة جمالية وفلسفية - جيروم سولينتز - تحقيق - د/ فؤاد زكريا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ثانية ١٩٨٥م. القاهرة.

٨٩- النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة - د/ محمد غنيمي هلال - دار النهضة مصر - د ت - القاهرة.

٩٠- هارب من الأيام (رواية) ثروت أباظة / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٩٤م. مصر.

٩١- وا إسلاماه (رواية) علي أحمد باكثير - دار مصر للطباعة /بدون تاريخ/ مصر.

٩٢- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد - د/ أحمد بسام ساعي / دار المنارة - أولى، ١٩٨٥م. جدة.

٩٣- الواقعية في الرواية العربية - د/ محمد حسن عبد الله - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م. القاهرة.

obeikandl.com

رابعاً: الصحف والدوريات:

(أ) - الصحف:

٩٤- أخبار اليوم - القاهرة - عدد ٢٦٧٤ في /١٩٩٦/٢/٣م.

(ب) الدوريات:

٩٥- مجلة الأمة: قطر، عدد ٣٤، شوال ١٤٠٣هـ.

٩٦- عدد ٤٤، شعبان: ١٤٠٤هـ.

٩٧- عدد ٦٧، رمضان ١٤٠٦هـ.

٩٨- مجلة الثقافة الجديدة، القاهرة، عدد ٨٦، نوفمبر ١٩٩٥م.

٩٩- مجلة الثقافة العربية بالجماهيرية العربية الليبية العظمى عدد ٨، السنة (٢٠) - أغسطس ١٩٩٥م.

١٠٠- مجلة الحرس الوطني المملكة العربية السعودية، عدد ١٤٣، المحرم ١٤١٥هـ.

١٠١- مجلة فصول مصر (عدد ٢/٢) مارس ١٩٨٢م.

١٠٢- مجلة فصول مصر (عدد ٢/٣) يونيو ١٩٨٢م.

١٠٣- مجلة فصول مصر (عدد ٣) المجلد ١١ / خريف ١٩٩٢م.

١٠٤- مجلة الفيصل المملكة العربية السعودية، عدد ٢٢٨، جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ.

١٠٥- مجلة الكويت - الكويت، عدد ١١٦، في ١/١/١٩٩٤م.

obeikandl.com

١٠٦- مجلة المسلم المعاصر، الكويت، عدد ٣٠، ٨ رجب ١٤٠٢هـ.

١٠٧- مجلة المسلم المعاصر، عدد ٥٣، ١٤ ربيع الأول ١٤٠٩هـ.

١٠٨- مجلة المصور - القاهرة، عدد ٢٣٧٢٠ في ١٩٩٦/١/٢٦م.

١٠٩- مجلة منار الإسلام - أبو ظبي، عدد ٨، ٥ شعبان ١٤٠٠هـ. وعدد ٧، ١٩ رجب ١٤١٤هـ.

١١٠- مجلة المنهل - السعودية - عدد ٥٢٧، رجب ١٤١٦هـ.

obeikandl.com